المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ الله تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَرِيم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

أثر إصلاح العقل ومنهج التفكير
في تعظيم الله جل وعز

اسم الباحث

أ.د/ عبدالله البخاري

أ. د. عبد الله البخاري

أثر إصلاح العقل ومنهج التفكير

في تعظيم الله جل وعز

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، ،

وبعد؛ فإنَّ من أعظم ما أنعم الله به على الثَّقلين، نعمة العقل، فهو مناط التَّكليف وبه يكون الثَّواب أو العقاب، والتمييز بين الخطأ والصواب، والحسن والقبيح، والضعيف والصحيح، قال الماوردي: «اعلم أنَّ لكلِّ فضيلة أُسًّا، ولكلِّ أدب ينبوعًا، وأسُّ الفضائل وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله للدِّين أصلًا، وللدُّنيا عِمادًا، فأوجب التَّكليف بكماله، وجعل الدُّنيا مدبرةً بأحكامه، وألَّف به بين خلقه مع اختلاف فهمهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم»[1].

وقد رفع الإسلام مكانته ومكانة من اتَّصف به، وحافظ عليه، بل إنَّ الشَّرائع كلَّها جاءت بصيانته والمحافظة عليه؛ لأنَّه من الضَّروريات الخمس، قال الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد اتَّفقت الأُمَّة، بل سائر الملل على أنَّ الشَّريعة وضعت للمحافظة على الضَّروريات الخمس، وهي: الدِّين، والنَّفس، والنَّسل، والمال، والعقل»[2].

ومن أجل المحافظة عليه وإصلاحه، حرَّم الله علينا إفساده بالمسكرات من الخمور وغيرها، ونهانا عن تعطيله باتِّباع الهوى والتَّقليد الأعمى، وأرشدنا إلى تنميته وتقويته بالتَّعلُّم والعلم والاجتهاد، والتَّأمُّل والتَّفكُّر والتَّدبُّر والاستنباط، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[النساء: ٨٢]، والعقل مخلوق له قدرة محدودة تختلف من شخص لآخر، قوة وضعفًا، وصلاحًا وفسادًا، وهو الآلة الوحيدة التي يتم بها التفكير في الخير أو في الشر، فإن صلح وقوي صلح بصلاحه منهج التفكير، والعكس بالعكس، وإذا صلح العقل ومنهج التفكير لا يمكن إلَّا أن نفكر بطريقه سليمة تهدي إلى تعظيم الله جل وعلا.

فما هو العقل، وما هو التفكير، وما هو منهج القرآن في إصلاح العقل ومنهج التفكير، وما هو تعظيم الله جل وعلا.

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين (٦-٧).

(٢) الموافقات (١/ ٢٠).

هذه الأسئلة الأربعة سيجيب عنها هذا البحث إن شاء الله في مباحث أربعة:

المبحث الأول: ماهية العقل ومحلُّه وأسماؤه ووروده في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: التفكير وبعض مفاهيمه ووروده في القرآن والسنة.

المبحث الثالث: منهج القرآن في إصلاح العقل والتفكير.

المبحث الرابع: تعظيم الله جل وعلا.

المبحث الأول: ماهية العقل ومحلّه وأسماؤه وروده في القرآن والسنة.

١- حدّ العقل لغة:

أصل مادة العقل يرجع إلى الحبس وما في معناه، قال ابن فارس: «العين والقاف واللَّام أصلٌ واحد منقاس مطَّرد، يدلُّ عُظْمُهُ على حَبسة في الشَّيء وما يقارب الحَبسة. من ذلك: العقلُ، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل»[١].

والحبس يكون حسيًّا ومعنويًّا وذاتيًّا وقسريًّا في مكان أو بآلة، ويكون في الشَّيء أو عن الشَّيء، فالحسيُّ للمحسوس من الأشخاص والأشياء، ويكون ذاتيًّا في مكان كلجوء النَّاس إلى المعاقل والملاجئ والحصون[٢] ليتحصَّنوا بها من العدو، والمرأة المخدَّرة التي تحبس نفسها في خدرها، ويقال لها: «العقيلة»[٣]، ودرّة البحر التي تكون داخل الصَّدفة والغشاء ممنوعة من أن تصاب بأي خَدش، وتُسمَّى «عقيلة»[٤].

والحبس القسري يكون للأشخاص الذين يُحبسون في السُّجون والمعتقلات رغم أنوفهم، وقد يُجمع لبعضهم بين الحبس في المكان والحبس بالقيد أو العقال، ويكون الحبس بالآلة فقط في مثل عقل البعير وربطه وشدِّه[٥].

وعقل إبل الدِّية التي تُسمَّى بالعقل؛ لأنّها تُعقل بفناء القتيل[٦]، وعقل صدقة عام من الإبل، وتُسمِّى «العقال»، وسُمِّيت بذلك؛ لأنّها تعقل عن صاحبها الطلب والمأثم[٧].

وأمَّا الحبس المعنوي؛ فكالعلم الذي هو نقيض الجهل، فهو يعقل الجهلَ ويمنعه، ويعقل ما علمه فلا يدعه يذهب[٨]، قال ابن تيمية: «عَقَل يعقل عقلًا: إذا ضبط وأمسك

---

(١) مقاييس اللغة (عقل).
(٢) كتاب العين (عقل (١/ ١٥١).
(٣) كتاب العين (عقل (١/ ١٥١).
(٤) مقاييس اللغة (عقل).
(٥) كتاب العين (عقل).
(٦) مقاييس اللغة (عقل).
(٧) المقاييس (عقل).
(٨) كتاب العين (عقل).

ما يعلمه. وقد شبَّه النَّبيُّ ﷺ ضبط القلب للعلم بضبط العِقال للبعير[١]، فقال: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[٢].

والمعقول ما يعقل في الفؤاد، وما يفهم من العقل، فالمعقول والعقل شيء واحد، والفهم عقلٌ وتعقلٌ وحبسٌ لما فُهم، وعَقَلَ: عرف ما كان يجهله، ورجل عقول: إذا كان حسن الفهم وافر العقل[٣]. والعقل: التَّدبُّر، من عقلت الشَّيء: إذا تدبرته[٤].

والحبس في الشَّيء كعَقْل بطن المريض بعد ما استطلق، ويُسمَّى الإمساك والاستمساك[٥]، وعقل فلان لسانه، أي: كفَّه عن الكلام، وفي لسانه حُبسة: أي: عُقدة[٦]، ومنه قوله تعالى حكايةً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه]، والحبس عن الشَّيء كأن يزجر الإنسان نفسه أو غيره عن فعل قبيح، ويقال فيه: عَقَلَ فلانٌ[٧].

وفلان معقل قومه، أي: يلجأون إليه إذا حزبهم أمر[٨]، وعقيلة كلِّ شيء: أكرمه، وعقيلة قومها: كريمتهم وخيارهم[٩]، وعقلت المرأة شعرها: عقدته[١٠]، قال في (القاموس): «العقل: الدِّية والحصن والملجأ والقلب»[١١].

والخلاصة: أنّ العقل يأتي بمعنى: الحبس، والمنع، والكفّ، والامساك، والاستمساك، والشَّدّ، والرَّبط، والعَقد، والحصن، والمعقل، والحراسة، والمعتقل، والزَّجر، والحفظ، والإدراك، والتَّزكية، والعلم، والفهم، والتَّدبُّر، والقلب، والشَّيء الكريم النَّفيس، والرَّجل الذي يلجأ النَّاس إليه إذا حزبهم أمرٌ، وكذلك العقل يُلجأ إليه من أجل التَّفكير في حلِّ المشاكل التي تحدث للإنسان.

---

(١) بغية المرتاد (٢٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٧٩١).
(٣) المقاييس (عقل).
(٤) المصباح المنير (عقل).
(٥) كتاب العين (عقل).
(٦) المفردات (٣٤١ – ٣٤٢).
(٧) المقاييس (عقل).
(٨) كتاب العين (عقل).
(٩) المقاييس (عقل).
(١٠) المفردات (٣٤١ – ٣٤٢).
(١١) القاموس (عقل).

٢- العقل في الاصطلاح:

إذا كانت القاعدة الأصولية تقول: «الحكم على الشَّيء فرع عن تصوُّره»[١]، وجمال الدِّين الأسنوي (٧٧٢هـ) يقول: «واعلم أنَّه لا يمكن الخوض في علم من العلوم إلَّا بعد تصوُّر ذلك العلم، والتَّصوُّر يستفاد من التَّعريفات»[٢]، فإن هذا يعني أنَّ الخطأ في التَّصوّر ينتج الخطأ في الحكم، والبحث يروم الحديث عن كيفية إصلاح مخلوق اختلف علماء الإسلام وغيرهم في تصوّره وتحديد ماهيته، ألا وهو العقل، فهو من السَّهل الممتنع، سهلٌ من حيث الاسم والعمل، لكنه صعب المنال من حيث الماهية والمحَلِّ، فهو من الأسماء التي يصعب عقلُها وضبطُها والوصولُ إلى حقيقتها؛ لذلك اختلف النَّاسُ فيه اختلافًا كثيرًا قبل الشَّرع وبعده، حتى قال بعضهم[٣]:

سل الناس إذا كانوا لديك أفاضلًا عن العقل وانظر هل جوابٌ يُحصَّل

وسبب الخلاف كما قال أبو حامد الغزاليُّ: «ذهولهم على كون هذا الاسم يطلق على معان مختلفة»[٤]. فهو من الأسماء المشتركة التي تدلّ على أكثر من معنى، فمن لم ينتبه إلى المعاني المختلفة للعقل وأراد حصره في معنى واحد لن يهتدي إلى المراد منه.

ومن أسباب الخلاف فيه أيضًا: أنَّ الكتاب والسُّنَّة لم يحسما في حدِّه، والعرب أطلقته على أكثر من معنى، فهو يشبه الرُّوح من وجه؛ يعيش به الإنسان ولا يستطيع تحديد ماهيته ومحلِّه، ولذلك؛ فإنِّي لمَّا بدأت بالتقميش وجمع المادة العلمية من هاهنا وهاهنا لم أستفق إلَّا وأنا في مفازة لا أعرف كيف أخرج منها، وأصبحتُ كما قال القائل[٥]:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

لكني بفضل الله لم أفعل كما فعل خراش الذي رجع خاوي الوفاض، وإنما سددت سهمي إلى السمين من الظباء، واقتنصت بعض ما سأعقله في هذا المبحث مما وقفت عليه

(١) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي (٢/ ٣٨٥).
(٢) نهاية السول في شرح منهاج الأصول (١/ ٥).
(٣) قواطع الأدلة للسمعاني (١/ ٢٦).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١١١).
(٥) مثل سائر، وذكره الطَّبري في (أحداث: ١٢٧) من (تاريخه) بلفظ: «تفرَّقت الظِّباء على خراشٍ ..».

في المصادر التي رجعت إليها، ولا أزعم أنِّي استقصيتُ كلّ المصادر والمراجع، ولا أنّي اعتمدت كلّ ما وصلت إليه يدي، وإنّما انتخبتُ المهم ممّا جمعتُ بحسب نظري، وضربتُ صفحًا عن أقوال الفلاسفة والمتكلمين؛ لأنَّ كثيرًا منهم أبعد النُّجعة في تعريف العقل، واقتصرت على أقوال السَّلف ومن سَلك سبيلهم أو قارب، ثمّ رتبت الأقوال ترتيبًا زمنيًا بحسب وفاة أصحابها إلَّا لضرورة ارتباط الكلام بعضه ببعض، وبدأت بـ: **عبد الله بن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٦٨هـ)، فقد قيل له: ما رأس العقل؟ قال: «يحلم عمَّن ظلمه، ويتواضع لمن دونه، ويتدبر ثم يتكلم»[١]، ففسَّر العقل بالأفعال الحسنة. وقال **الحسن البصريُّ** (١١٠هـ): «ما تمَّ دينُ عبدٍ قطُّ حتى يتمَّ عقلُه»[٢]، فسَّر العقل بتمام الدين. وسُئل **عطاء بن أبي رباح** (١١٤هـ): ما أفضل ما أُعطي العبدُ؟ فقال: «العقل عن الله»[٣]، فسَّر العقلَ بالعقل عن الله والفهم عنه. وسئل أيضًا **عبد الله بن المبارك** (١٨١هـ): ما خير ما أعطي الرجل؟ فقال: «غريزة عقل»[٤]. ومثله قال الإمام أحمد (٢٤١هـ)[٥].

وقد فسَّر القاضي أبو يعلى (غريزة عقل) بأنَّ العقل خلق لله ابتداء، وليس باكتساب العبد[٦]، ونُقل عن **الشَّافعيِّ** (٢٠٤هـ) بأنَّ «العقل آلة تمييز»[٧]، ولفظه كما في الرِّسالة: «فدلَّهم على صواب الاجتهاد بالعقول التي ركَّب فيهم المميزة بين الأشياء وأضدادها»[٨]، ومثله قال **أبو نصر السِّجزي** (٤٤٤هـ): «الحُجة القاطعة هي التي يَرِد بها السَّمع لا غير، وأنَّ العقلَ آلةٌ للتمييز فحسب»[٩]، ونقل القرطبيُّ والزركشي عن **أبي الحسن الأشعريِّ** (٣٣٠هـ) أنَّ العقل هو العلم[١٠].

---

(١) الإبانة عن طرق القاصدين إلى عبادة رب العالمين (٢٩١).
(٢) روضة العقلاء (١٩).
(٣) روضة العقلاء (١٨).
(٤) روضة العقلاء (١٧).
(٥) العدة في أصول الفقه (١/ ٨٥ – ٨٦)، وبغية المرتاد (٢٥٣).
(٦) العدة في أصول الفقه (١/ ٨٦).
(٧) قواطع الأدلة (١/ ٢٨).
(٨) الرسالة (٢٣-٢٤).
(٩) الرّدُّ على من أنكر الحرف والصوت (٨٥).
(١٠) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٧٠)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٨٥).

ومن أوائل المتحدثين عن العقل بشيء من التفصيل في رسالة خاصَّة **أبو عبد الله الحارث المحاسبيُّ** (٢٤٣هـ)، فقد حصره في ثلاثة معانٍ: الأوَّل أنَّه غريزة، وهذا هو أصل العقل، والثاني والثالث ينتجان عنه، وتُجَوِّزُهُما اللُّغة والكتاب والسُّنَّة، وهما: الفهم والبصيرة، فعن **المعنى الأول** قال: «فهو غريزة لا يعرف إلَّا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحدٌ أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله، لا بجسمية ولا بطول ولا بعرض ولا لون، لا معنى له غيره». يعنى: أنَّه غزيرة لا غير، ويلاحظ أنَّ المحاسبي هنا عرَّف العقل بأفعاله وما يصدر عنه.

والمعنى الثاني: أنَّ العقل هو الفهم لإصابة المعنى، وهو البيان لكلّ ما يُدرك بالحواس الخمس، ويُسمِّى ذلك عقلًا، والفاعل عاقلًا، ودليل تفسير العقل بالفهم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[البقرة: ٤٤]، أي: أفلا تفقهون وتفهمون[١]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[البقرة: ٧٥]، أي: من بعد ما فهموه[٢].

والمعنى الثالث: أنَّ العقل هو البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النَّافعة والضَّارَّة في الدُّنيا والآخرة، ومنه: العقل عن الله الذي يعنى الفهم المؤدِّي إلى تعظيم قدر الله وثوابه وعقابه، وعند المحاسبيِّ: أنَّ مَن لا يعقل عن الله مرادَه ليس بعاقل، وإن كانت عنده غريزة العقل التي تميِّزه عن المجانين؛ لأنَّه عطَّلها ولم يستخدمها، فأصبح كمن لا عقل له، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٦].

ولما كان مذهب المحاسبيِّ هو تعريف العقل بما يوصف به من الصِّفات والأفعال الحسنة، ذكر أنَّ أكمل الناس عقلًا هو من اتَّصف بثلاث خلال: **الأوَّل**: الخوف من الله واتباع أمره، **الثاني**: قوَّة اليقين به وبما قال ووعد وتوعَّد، **الثالث**: حسن البصيرة بدين الله والفقه عنه فيما أحبَّ وكره[٣].

وما ركَّز عليه المحاسبي هو نفسه صنيع **أبي حاتم محمد بن حبَّان البُستي** (٣٤٥هـ) في كتابه (روضة العقلاء)، فقد بوَّب للعقل بقوله: «ذِكْرُ الحثِّ على لزوم العقل، وصفة العاقل

(١) تفسير الطبري عند (الآية ٤٣) من (البقرة).
(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (عند الآية ٧٤) من (البقرة).
(٣) ماهية العقل (١-٥).

اللَّبيب»[١]، واستشهد بحديث: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[٢]، وفسَّر العقل بمكارم الأخلاق وتمام الدِّين، فقال: «وإنَّ محبَّة المرء المكارم من الأخلاق، وكراهته سفسافها هو نفس العقل. ولا يتم دين أحد حتى يتمّ عقله»[٣].

وفسره أيضًا بمعرفة الصَّواب من الخطأ، والعمل بذلك ومحاسبة النَّفس، فقال: «والعقلُ اسمٌ يقع على المعرفة بسلوك الصَّواب، والعلم باجتناب الخطأ»[٤]، وقال: «أفضل ذوي العقول منزلةً أدومُهم لنفسه محاسبة، وأقلُّهم عنها فترة»[٥].

وختم الباب بقوله: «الواجب على العاقل الحازم أن يعلم أنَّ للعقل شُعيًا من المأمورات والمزجورات، لا بدَّ من معرفتها واستعمالها في أوقاتها لمباينة العام وأوباش النَّاس بها»[٦].

ثم ذكر في كتابه خمسين شعبةً من شعب الإيمان الظَّاهرة والباطنة، سمَّاها شعب العقل، قال في أوَّلها: «فأوَّل شعب العقل هو: لزوم تقوى الله وإصلاح السَّريرة»[٧].

وهذا يبيِّن أنَّ أبا حاتم جعل العقل هو الإيمان، وعرَّفه بالأعمال الصَّالحة، ثمّ إنّه جعل العقل نوعين: مطبوع ومسموع، فالمطبوع كالأرض، والمسموع كالبدر والماء، أو إنَّ المطبوع من الإنسان كعروق الشَّجرة من الأرض، والمسموع كثمارها المتدلية، فلا يستغني أحدهما على الآخر، وأنشد لمحمّد الواسطي[٨]:

رأيت العقل نوعين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفع الشَّمسُ ... وضوء العين ممنوعُ

---

(١) روضة العقلاء (١٦).
(٢) أخرجه البزّار (كشف الأستار: ١٩٦٧).
(٣) روضة العقلاء (١٦).
(٤) المصدر نفسه.
(٥) روضة العقلاء (١٩).
(٦) روضة العقلاء (٢٦).
(٧) المصدر نفسه.
(٨) روضة العقلاء (١٧-١٨).

وقال ابن فورك (٤٠٦هـ): «حدُّ العقل هو البَدائِهُ من العلوم التي لا يَشْرَك في علمها العاقلون البهائم، والمتيقظون النوَّم»[١]، ونُقِل عنه أيضًا: أنَّ «العقل هو الذي يُمْتَنَع به من فعل القبيح»[٢]، وفي كتابه (الإبانة) نقل عن المحاسبيِّ الخلافَ الكثيرَ في العقل، وأنَّه: أنوار بصائر في القلوب يُفرِّق بها العبدُ بين الحقِّ والباطل، وأنّها موهبة وليست مكتسبة، وأنَّها تعقل عن الله وتفهم حُسنَ الصَّواب، وليست هي بجسم وإنَّما هي صفةٌ، وأنَّ العقل عقلان: غريزيٌّ، وعقل تجارب. وبالغزيريِّ تدرك التَّجارب، ويُسمَّى العبدُ عاقلًا إذا فهم عن الله[٣].

ويلاحظ أنَّ ابن فورك عرف العقل ببعض أنواعه، وما نقله عن المحاسبيِّ كثيرٌ منه غير موجود في «ماهية العقل»، ويلاحظ أيضًا: تقسيم العقل إلى غريزي وتجارب، وعقل التَّجارب هو العقل المكتسب الذي نقل عن المحاسبيِّ نفيه.

الماوردي أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ) قال ما ملخصه: بالعقل تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات، وهو قسمان: غريزيٌّ ومكتسب، **فالغريزيُّ** هو الذي به التَّكليف والتَّميز عن الحيوان[٤]، والعقل هو: العلم بالمدركات الضَّرورية وهي نوعان:

مدرك بالحواس: «السَّمع والبصر واللَّمس والذَّوق والشَّمّ». ومن عطَّلها لا يخرج عن كونه عاقلًا؛ لأنَّه لو أراد استعمالها لفعل.

ومدرك ابتداء في النفوس: كالعلم باستحالة اجتماع الضِّدَّين، فمن صار عالمًا بالمدركات الضَّروريات بنوعيها، فهو كامل العقل الغريزيِّ الذي نيط به التَّكليف[٥].

وأما **العقل المكتسب**؛ فهو نتيجةٌ للغريزيّ، وهو المعرفة وصحّة السَّياسة وإصابة الفكرة، والعقل ينمو إذا استُعمل، وينقص إذا أُهمل، ونماؤه يكون بأمرين:

الأوَّل: الاستعمال والتَّجارب والممارسة، وقد قيل: كفى بالتَّجارب تأديبًا وبتقلب الأيام عِظةً، وقال الشاعر[٦]:

---

(١) الحدود في الأصول (٧٩-٨٠).
(٢) العدة في أصول الفقه (١/ ٨٥).
(٣) الإبانة عن طريق القاصدين والكشف عن منهج السالكين (٢٩١).
(٤) أدب الدنيا والدين (٨).
(٥) أدب الدنيا والدين (٩-١٠).
(٦) أدب الدنيا والدين (١٠ - ١١

ألـم تَـرَ أنَّ الـعَـقْـلَ زَيـنٌ لِأهْـلِـهِ وأنَّ تمـامَ العقـلِ طُولُ التَّجـارُبِ

الثَّاني: الذَّكاء وحُسن الفِطنة وجودة الحدس(١)، والعقل المكتسب لا ينفكُّ عن الغريزيِّ لأنَّه نتيجة، بينما الغريزيُّ ينفكُّ عن المكتسب(٢)، وبعضهم يُسمِّي الغريزيَّ بالمطبوع، والمكتسب بالمسموع، كما سبق عند أبي حاتم، ولا يصلح واحدٌ منهما إلَّا بصاحبه(٣).

قال الرَّاغب الأصبهاني (٥٠٢هـ) ما ملخصه: والعقل المطبوع هو الذي إذا فقده الإنسان رُفِع عنه التَّكليف، والمسموع هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفَّار بعدم العقل، فإشارة إلى العقل المسموع في مثل قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١](٤).

أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن حزم (٤٥٦هـ) ذهب إلى أنَّ العقل ما هو إلَّا طاعة لله تعالى، فقال: حدُّ العقل استعمال الطَّاعات والفضائل، وهذا الحدُّ ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرَّذائل، وقد نصَّ الله -تعالى- في غير موضع من كتابه على أنَّ مَن عصاه لا يعقل، قال تعالى حاكيًا عن قوم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك]، ثمَّ قال مصداقا لهم: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [المُلك]، وحدُّ الحمق: «استعمال المعاصي والرَّذائل»(٥)، وقال: «كلُّ عاقل مميِّز، وليس كلُّ مميِّز عاقلًا، ويستعمل في اللُّغة بمعنى الفهم، وأهل الزَّمان يستعملونه فيمن وافق أهواءهم، والحقُّ من ذلك هو ما قاله الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، يريد: الذين يعصونه»(٦).

فبان أنَّ العقل عند ابن حزم هو طاعة الله، وأنَّ الحمق هو معصية الله، وأنَّ كلَّ عاقل مميِّز دون العكس، ومن معاني العقل الفهم، وأن بعض النَّاس يطلقونه على من وافقهم في الهوى فقط.

---

(١) أدب الدنيا والدين (١١).
(٢) أدب الدنيا والدين (٢٠).
(٣) أدب الدنيا والدين (٢١).
(٤) المفردات (٣٤٢).
(٥) كتاب الأخلاق والسير (١٤٣).
(٦) رسائل ابن حزم (٤/ ٤١٢).

أبو المظفر منصور بن محمَّد السَّمعانيُّ (٤٨٩هـ) لم يبتعد عن المذهب القائل بأنَّ العقل علم وعمل، وأصلٌ لكل علم وآلةٌ تمييز، وأنَّه هو العلم، وهو غريزيٌّ ومستفاد، فقال ما ملخصه: إنَّه أصلٌ لكلِّ علم، وأنَّ بعض أهل العلم يُسمِّيه أمّ العلم، أو هو نوعٌ من العلم عند كافَّة المسلمين، واختلفوا في حقيقته: فقيل: آلة تمييز، وقيل: قوّة يفصل بها بين حقائق المعلومات، وقدر من العلم يميِّز به بين خير الخيرين وشرّ الشَّرين، ويُخرَج به عن حدِّ المجانين والمعتوهين، ويصحّ معه التَّكليف، ولا فرق بينه وبين العلم، كما لا فرق بين قولهم: علمت وعقلت، وأمر معلوم ومعقول، وهو غريزيٌّ عبارة عن قوّة متهيئة لقبول العلم بمنزلة البصر من الجسد. ومستفاد تتقوّى به القوّة التي في الغريزيِّ، وهو بمنزلة النُّور، فالبصر لا بدَّ له من نور الجوّ، والعقل لا بدَّ له من نور العلم[١].

أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزّالي (٥٠٥هـ) جعل العقل يطلق بالاشتراك على خمسة معانٍ: **غريزةٌ** يفارق بها الإنسان البهائم، ويستعد بها لقبول العلم، **علوم ضرورية** يصل بها الطّفل إلى التَّمييز بين الجائز والمستحيل، **علوم مستفادة** من التَّجارب وهو العلم المكتسب، **المعرفة بعواقب** الأمور وقمع الشَّهوات[٢]، **الوقار والهيبة** والسَّكينة[٣]، ثمّ بيَّن أنَّ المعنى الأوَّل أساسٌ، والثاني فرعٌ عنه، والثَّالث فرعٌ عن الأوَّل والثَّاني، والرَّابع ثمرة وغاية، فالأوَّل مطبوعٌ والبقية مكتسبة[٤].

أبو العباس أحمد عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨هـ) زبدةُ قوله: أنَّ العقل علمٌ وعملٌ، تمييز وتكليف، غريزي ومكتسب، صفة ليس بجوهر، محصور في أربعة معانٍ اتَّفق مع الغزَّاليِّ في ثلاثة منها. قال ما ملخصه: العقلُ هو ضبط العلم وإمساكه، وذلك مستلزم لاتباعه، فلهذا صار لفظ العقل يطلق على العمل بالعلم[٥]، واستدلّ على أنَّ العقل هو العلم بما استدلَّ به السَّمعاني أنَّه لا يقال: «عقلت وما علمت»[٦]، فالعقل لا يُسمَّى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم، بل إنَّما سُمِّي به العلم الذي يُعمل به والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النَّار:

---

(١) قواطع الأدلة (١/ ٢٦ – ٢٨).
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١١١-١١٢).
(٣) المستصفى (١/ ٦٤).
(٤) إحياء علوم الدين (١ / ١١٢).
(٥) بغية المرتاد (٢٥٠-٢٥١).
(٦) بغية المرتاد (٢٦٤).

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[المُلك]، والعقل المشروط في التَّكليف لا بدَّ أن يكون علومًا يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضرّه، فالمميز عاقلٌ، ومن لا؛ فلا[١].

والعقل عند الإطلاق يراد به التَّمييز والتَّكليف والخروج عن حدِّ المعتوهين[٢]، وهو في لغة المسلمين ليس مَلَكًا ولا عقولًا عشرة ولا جوهرًا، ولا هو الله كما تزعم الفلاسفة، بل هذا من لغة اليونان، فالعقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنَّما هو صفة، وهو الذي يُسمَّى عرضًا قائمًا بالعاقل، بدليل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، و﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[الحج: ٤٦][٣].

وأصله من: عَقِل يَعْقَل عقلًا، مثل سَمِع يَسمَع سمعًا، فالقوَّة التي بها يَعقَل كالقوَّة التي بها يسمع، وقد أنكر البعض أن يكون في الإنسان قوَّة يعلم بها غير العلم، أو يسمع بها غير السَّمع، منهم أبو بكر بن العربي[٤]، لكنَّ السَّلف والأئمة متَّفقون على إثبات هذه القوَّة، وهذه القوَّة تسمَّى عقلًا عند كثير من العلماء منهم الجويني[٥]، وعند علماء كثير من الطَّوائف: أنَّ العقل هو القوَّة التي يعقل بها أو يفصل بها بين حقائق المعلومات، وأنَّه مكتسبٌ وغريزةٌ (أي: مخلوق ابتداء)، وقيل: نورٌ، وقيل: ما حَسُن معه التَّكليف، وقيل: ضربٌ من العلوم الضَّرورية، كالعلم باستحالة اجتماع الضِّدَّين[٦].

ولمَّا كانت الأقوال في حدِّ العقل كثيرة ومتقاربة في المعنى حتَّى بين السَّلف، وقد حاول ابنُ تيمية حصرَها في أربعة معان:

الأوَّل: علوم ضرورية يُفرَّق بها بين المجنون والعاقل.

الثاني: علوم مكتسبة يعرف بها الإنسان ما يضرّ وما ينفع، ومَن عدمها ذُمَّ وإن كان ليس بمجنون. وما في القرآن من مدح مَن يعقل وذمِّ مَن لا يعقل يرادّ به هذا النَّوع الذي قد يكون بعضهم من الذين يقولون يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[المُلك].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٢) بغية المرتاد (٢٦٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٦ – ٢٨٧).
(٤) بغية المرتاد (٢٦١).
(٥) بغية المرتاد (٢٦٤).
(٦) بغية المرتاد (٢٦١).

الثَّالث: العمل بالعلم.

الرَّابع: الغريزة التي بها يعقل الإنسان[١].

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم (ت٧٥١هـ) ملخص كلامه أن العقل هو العلم الموصل إلى رضا الله ورسوله، قال: «العقل أبو العلم ومربيه وسائسه ووزيره... وهو عقلان: غريزة، وهو أبو العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا معًا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء... فإذا رُزق العقل الغريزي عقلًا إيمانيًا مستفادا من مشكاة النبوة، لا عقلًا معيشيًا ثقافيًا يظن أربابه أنهم على شيء بينما هم ليسوا على شيء... فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، والله الموفق والمعين»[٢].

ومن الذين تحدَّثوا عن العقل بتفصيل أبو البقاء الكَفَويّ (١٠٩٤هـ) في كلياته[٣]، والتَّهانوي (١١٥٨هـ) في (كشافه)[٤]، لكن لا جديد عندهما فيما نقلاه عن المتقدمين، ومن المعاصرين الدكتور جابر إدريس في كتابه (منهج السَّلف والمتكلمين في موافقة العقل للنَّقل)[٥]، والدكتور سعيد العريفي في كتابه (الأدلَّة العقلية النَّقلية على أصول الاعتقاد)[٦]، ولا جديد أيضًا عندهما إلَّا الجمع والتّرتيب.

٣- خلاصة القول في ماهية العقل وحدّه

من مجموع ما سبق يظهر أنَّ ماهية العقل فيها خلاف كثير عند المسلمين وغيرهم، وذلك لسببين:

الأول: تعدُّد إطلاقات العقل في اللِّسان العربي، فهو من الأسماء المشتركة، قال ابن تيمية: «مسألة العلم والعقل كلّ واحد من الاسمين يحتمل معانٍ كثيرة، فلا يجوز إطلاق الجواب بلا تفصيل»[٧].

---

(١) بغية المرتاد (٢٦٠-٢٦١).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٧).
(٣) (٦١٧-٦٢٠).
(٤) (٣/ ١٠٣٣-١٠٣٤).
(٥) (١/ ٧١-٧٣).
(٦) (١٩-٢٠).
(٧) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٦) بتصرف.

والثاني: عدم بيان الوحي لماهيته، فهو يشبه الرُّوح من جهة حضور أثره وغياب حقيقته، فكلُّ حي في هذه الحياة فبالروح، وكلّ ما في هذه الحياة من اختراع وصناعات وحضارات فبالعقل، ولم يستطع أحد تحديد كنههما، وكلّ حديث عن ماهية العقل فهو باجتهاد العقل وتفكيره في النُّصوص الواردة في أحواله وأحوال أهله، قال ابن جرير: «وهذا القلب أيّ شيء هو، إنّما هو مضغة في جوفه، يجعل الله فيه العقل، أفيدري أحدٌ ما ذاك العقل وما صفته، وكيف هو؟!»(١).

وجماع ما قيل فيه:

أنَّه العلم وأصله وأسُّه ومنتجه وأبوه وأمّه، ولا فرق بينه وبين العلم، وأنَّه القوة المتهيئة لقبول العلم وعلوم ضرورية ومستفادة وتجارب، ونوع من العلم يمتنع به من فعل القبيح، وأنَّه ضبط العلم وإمساكه والعمل به، ومعارف فطرية ونظرية، وهو الفهم والبيان، والبصيرة بقدر الأشياء، ونور إلهي يفرِّق به الإنسان بين ما يضرّه وما ينفعه، وبين الخطأ والصَّواب والحسنات والسيئات، وهو غريزة يعقل بها الإنسان لا يُعرَف إلَّا بفعاله.

وهو غريزي تُعْلَم به المدركات الضَّرورية، وكسبي ينمو بالفطنة والذَّكاء والتَّجارب، وينقص بالتَّقليد والتَّعطيل والإهمال، وهو مطبوعٌ بمعنى مخلوقٌ ابتداءً إذا فُقِد؛ رُفِع عن الإنسان التَّكليف، ومسموع مكتسب.

وهو صفة وليس بجوهر، بل هو عرض قائم بالعاقل، وهو عقل التمييز والتكليف، وبه يخرج الإنسان عن حدِّ المجنون والمعتوه، وهو القوّة التي يعقل بها القلب، والآلة التي بها يميِّز، وبه تعرف حقائق الأمور، وهو معرفة عواقب الأمور والوقار والهيبة والسكينة، وهو ما يتصف به الإنسان من الصفات الطيبة والأعمال الصالحة، وهو حسن البصيرة في الدين والفقه فيه، وتمام الدين ومكارم الأخلاق والعقل عن الله والخوف منه، وقوّة اليقين بالله وأخباره ووعده ووعيده.

والعقل هو العلم الموصل إلى رضا الله ورسوله، وما هو إلَّا طاعة الله، وكلُّ من عصى الله فهو لا يعقل ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[المُلك].

---

(١) تفسير ابن جرير (سورة الذاريات: ٢١).

٤- الفرق بين عقل الرجل والمرأة

ذكر ابن تيمية حديث: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[(١)]، ثمَّ قال: «والعقل مصدر عَقِل يَعقَل عقلًا إذا ضبط وأمسك ما يعلمه، وضبطُ المرأةِ وإمساكُها ممَّا تعلمه أضعفُ من ضبط الرَّجل وإمساكِه (يعني: في الغالب، فغالب من تفوَّق في القيادة والعلم هم رجال، ويوجد متفوِّقات من النِّساء، ولكنَّ ذلك نادرٌ، والنادر لا حكمَ له) ومنه: سُمِّي العِقَالُ عقالًا، لأنَّه يمسك البعيرَ ويضبطه، وقد شبَّه النَّبيُّ ﷺ ضبطَ القلب للعلم بضبط العِقال للبعير، كما في الحديث: (مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ)»[(٢)].

٥- محل العقل في الإنسان

قال الماورديُّ: «دلَّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، على أنَّ العقل علمٌ، وأنَّ محله القلب»[(٣)].

وقال السَّمعانيُّ: «واعلم أنَّ محلَّه القلب؛ لأنَّ محلّ سائر العلوم القلب، فكذلك هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ مِنْهُم [ق: ٣٧]، أي: عقل، دلَّ أنَّ محلّه القلب حيثُ عبّر به عنه، وقال بعض الأحناف: محلُّه الدِّماغ، والأوَّل أصح»[(٤)].

وذهب ابن تيمية إلى أنَّ العقل قائمٌ بنفس الإنسان التي تعقل، وفي البدن هو متعلق بقلبه بدليل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[الحج: ٤٦]، وقول ابن عبَّاس: «نلتُ العلم بلسان سؤول، وقلب عقول»[(٥)]، والقلبُ يراد به المضغة التي في الجانب الأيسر من البدن، ويرادُ به باطن الإنسان مطلقًا؛ لأنَّ قلب الشَّيء باطنه، فإذا أريد هذا؛ فالعقل متعلِّق بدماغه أيضًا، ولهذا قيل: إنَّ العقل في الدِّماغ كما يقوله الأطباء، وقيل: إنَّ أصل العقل في القلب، فإذا كَمُل انتهى إلى الدِّماغ، ورجَّح أنَّ له تعلُّقًا بهما معًا، لكن مبدأ الفكر والنَّظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٢).
(٢) بغية المرتاد (٢٥٠)، والحديث أخرجه البخاريّ (٥٠٣١).
(٣) أدب الدنيا والدين (٩-١٠).
(٤) قواطع الأدلة (١/ ٣٠).
(٥) المستدرك للحاكم (٣/ ٥٣٩-٥٤٠)، والطبراني في (مجمع الزّوائد ٩/ ٢٧٧).
(٦) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).

وهو ما رجَّحه ابنُ القيِّم بقوله: فالصَّواب: أنَّ مبدأه ومنشأه القلب، وفروعه وثمرته في الرَّأس»[١]، ونقل الزَّركشيُّ أقوالًا أخرى، منها: أنَّه لا يُعرف محلُّه، وَرَدَّه.

وقيل: مشترك بين الرَّأس والقلب، وقيل: لكلِّ حاسَّة منه نصيب، وقيل: معنى يضيء في القلب وسلطانه الدِّماغ، وقيل: بصيرة في القلب بمنزلة البصر من العين.

وكما أنَّ القرآن نصَّ على أنَّ العقل يكون بالقلب فإنَّ السُّنَّة نصَّت على ذلك أيضًا، وبيَّنت أنَّ السَّمع يكون بالأُذن، والعقل يكون بالقلب، كما في حديث جابر بن عبد الله، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إن مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا ثم بنى فيها بيتًا... » الخ[٢]، وكذلك قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ العقل في القلب، والرَّحمة في الكبد، والرَّأفة في الطِّحال، والنَّفَس في الرِّئة»[٣].

٦- الأسماء المتضمنة للعقل في القرآن والسنة وكلام العرب

قال ابن تيمية: «وفي القرآن الأسماء المتضمنة له (العقل) كاسم الحِجْر والنُّهَى والألباب، ونحو ذلك»[٤].

فالعقل أنواع وأجناس، والعرب لهم إطلاقات كثيرة في شأنه، بعضها يدلّ عليه بالمطابقة، وبعضها بالتَّضمن لأنواعه ومراتبه، لأنَّه درجات ودركات، وبين أهله تفاوت واختلافات، وما سأذكره من الأسماء لم أقصد به الاستقصاء، وإنَّما زَبَرت ما سمح به الوقت والمقام.

وهذه الأسماء إمَّا أن تذكر في الكتاب والسُّنة أو في أحدهما، أو في اللُّغة دونهما، وما ورد في الكتاب والسنة أُعَرِّفُ به لغةً، ثمّ أثني بالإشارة إليه فيهما عدًّا ومعنى.

وسأبتدئ بذكر ما ورد فيهما، ثمّ القرآن وحده، ثمّ السُّنَّة، ثمّ اللُّغة وحدها:

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩٥).

(٢) أخرجه التّرمذي (٢٨٦٠)، وصححه الألباني في (الصَّحيحة: ٣٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ في (الأدب المفرد: ٤٢٥).

(٤) بغية المرتاد (٢٤٨).

١ - القلب:

يدلُّ على أصلين:

الأول: خالص الشَّيء وشريفه كقلب الإنسان.

والثَّاني: ردّ شيء من جهة إلى جهة، كقلب الثَّوب[١].

وكلا الأصلين ينطبق على قلب الإنسان، قال ابن الجوزيِّ: «القلب: محلّ النَّفس والعقل والعلم والفهم والعزم، وقيل: سُمِّي قلبًا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم، والاعتقادات والإرادات، وخالص كلِّ شيء وأشرفه: قلبه. وذكر أهل التَّفسير أنَّ القلب في القرآن على ثلاثة أوجه: **القلب**، الذي هو محلَّ النَّفس، ومنه: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ٱللَّهَ﴾[الحج: ٤٦]، **الرَّأي**، ومنه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤]، **العقل**، ومنه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]»[٢].

وجائز في العربية أن نقول: أين ذهب قلبك، أي: أين ذهب عقلك[٣].

وقد ذُكر القلب في القرآن مفردًا ومثنى وجمعًا اثنتان وثلاثون ومائة مرة، موصوفًا بصفات متعددة مدحًا أو ذمًّا.

٢٦ صفة في المدح، وهي: أنّه عضو فردي، سليم، منيب، مطمئن، مهديٌّ، تقي، مخبت، يلين ويخشع، ويكسب ويعقل ويوجل، يُثَبَّت ويُرْبَط عليه، يؤلف ويُطَهَّر، يُمتحن ويمحص، يُزَيَّن له الإيمان ويُكَرَّه له الكفر والفسوق والعصيان، يُكْتَب فيه الإيمان ويُدخل فيه، فيه سكينة ورأفة ورحمة، لا يعلم بما فيه إلَّا الله.

و٣٧ صفة في الذَّمِّ، وهي: غليظ، آثم، غافل، لاه، مجرم، منكر، ضيق، مشمئز، مقفل، قاس، يأبى ويغتاظ، يرتاب ويشكّ، يميل ويتقلَّب، يزيغ ويتعمد الخطأ، ويُشرب الكفر، لا يفقه ولا يؤمن، مريض أعمى، غُلف مختوم عليه ومطبوع، في أكنة وفي غمرة، عليه الرَّان وقد يُحال بينه وبين صاحبه، فيه رعب وخوف ونفاق وحسرة وزيغ وغِلّ وحمية الجاهلية، فيكون مجموع صفاته في القرآن ٦٣ مأخوذة من ١٣٢ عدد موارده في القرآن.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: قلب

(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ٤٨٢ – ٤٨٣) بتصرّف.

(٣) لسان العرب لابن منظور: قلب

وأمَّا القلب في السُّنة؛ فقد ورد بمعنى العقل في قوله ﷺ: «**اعقل عقل قلبك**»[١]، وبحسب (المعجم المفهرس) ذُكِر في السُّنَّة أكثر من ١٠٠ مرَّة موصوفًا بصفات متعدِّدة مدحًا وذمًّا، **ففي سياق المدح ٤٧ صفة تقريبًا**، منها: «شَقَّ قلبَ محمَّد ﷺ، وغسله»، وشاكر وساكن وطاهر وواع، وأجرد، لين رقيق تقي نقي، مجاهد منور، معلق بالمساجد، مطمئن يخشع ويوجل، كريم سليم لا يغل، لا يجتمع فيه الإيمان مع الشُّحّ والكفر والحسد، وإذا صلح صلح بصلاحه الجسد، يُؤْلَف ويُحْشى بالإيمان ويمتلئ به، فيه واعظ، وفيه الصّدق والإخلاص واليقين، والرَّحمة والأمانة والبركة، يتقلَّب بين أصبعين من أصابع الرحمن، ويتفاوت فيه الإيمان، وهو محلّ نظر الله، ولا يعلم ما فيه إلَّا الله، يُصرَّف ويُمَرَّغ، ويَخْتَلف ويحزَن، ويعقل، ويُنْكِرُ المنكر ويكرهه.

وفي سياق الذَّمِّ ٢٨ صفة تقريبًا، منها: أنَّه مصفح؛ فيه إيمان ونفاق، وأغلف منكوس، يزني ويجزع، ويغان عليه، ويهوى ويصاب ويموت ويطبع عليه، يتمنى ويميل ويلعن ويختم عليه، ينفر وينكر المعروف ويكرهه، شقي فاجر قاسي عليه الرَّان، تعرض عليه الفتن فيتحوَّل إلى قلب ذئب وشيطان، مشمئز فيه الإثم والبغي، والحسد والشَّرّ، فيكون مجموع الصِّفات المذكورة في السُّنَّة ٧٥ صفة بين المدح والذَّمِّ تقريبًا من ١٠٠ حديث نبوي.

٢ - الفؤاد:

فأَدَ: يدلّ على حمَّى وشِدّة حرارة، والفؤاد سُمِّي بذلك لشِدَّة **حرارته**[٢]، والفؤاد: القلب، وقيل: باطنه أو عينه، وقيل: القلب أخصّ من الفؤاد[٣]، والقلوب والأفئدة قريبان من السَّواء[٤]، قال ابن عاشور: «الفؤاد: العقل في كلام العرب»[٥]، وقال: «والأفئدة: جمع فؤاد، وأصله القلب، ويطلق كثيرًا على العقل»[٦]، وقال: «والفؤاد مستعمل في معنى العقل واللّب» [٧].

---

(١) أخرجه التّرمذي (٢٨٦٠)، وأعلّه بالانقطاع.
(٢) مقاييس اللغة (فأد).
(٣) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (٥/ ١٨٥).
(٤) لسان العرب (قلب).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٩).
(٦) المصدر نفسه (١٤/ ٣٣٢).
(٧) المصدر نفسه (٢٠/ ٨٠).

وذُكِر الفؤاد في القرآن ١٦ مرّة؛ خمس مرَّات بالإفراد، والباقي بالجمع، وتوزَّعت آياته بين التَّذكير بنعمة الفؤاد مع السَّمع والبصر، وأننا سنسأل عنه يوم القيامة، وتثبيت فؤاد النَّبيِّ ﷺ، ونفي الكذب عنه، وفراغ فؤاد أمّ موسى، وحنين الأفئدة إلى بيت الله الحرام، وميل بعضها إلى ما توحي به الشَّياطين، وخوف بعضها، ووصول العقاب إليها، وأنَّه يُحال بين بعضها وبين الإيمان، والجاحد للحقِّ لا يستفيد من فؤاده.

وأمَّا السُّنَّة؛ فقد ذُكِر فيها بحسب (المعجم المفهرس) **١٥ مرَّة**، مرَّتان بالجمع، والباقي بالإفراد، ووصف بأنَّه ينخلع ويرجف، ويصاب، ويبرد، ويسر عنه الهمّ، ويتقوَّى ويهتدي، ويلين ويرق، ويرى ويفرغ، ويعالج، والولد يُسمّى: ثمرة الفؤاد، وقد جمع الفؤاد والقلب في حديث: «**أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا**»،[١] وكذلك حديث: «**إن الله مثبت فؤادك، وهادٍ قلبك**»[٢].

٣- اللُّبُّ:

ابن فارس: لبُّ كلِّ شيء: خالصه، وما يُنتقى منه، ولذلك؛ سُمِّي العقل لُبًّا، ورجل لبيب: عاقل[٣]، وفي (اللِّسان): «ولبُّ الرَّجل، ما جعل في قلبه من العقل، ويجمع على ألباب وألبب»[٤]. والفرق بين العقل واللب، أن العقل يفيد حصر معلومات الموصوف به، واللب يفيد أنه خالص صفات الموصوف به[٥].

وقد ذُكِرَ اللبُّ في القرآن بصيغة الجمع فقط، في ستة عشر موضعًا، كلِّها في سياق المدح، كَلَفْتِ انتباههم إلى التَّفكُّر في الحكمة من تشريع القصاص، رجاء حصول التقوى، أو أمرهم بالتقوى والتزود بها، أو أنّهم هم المؤمنون، أو هم المنتفعون بالذِّكرى والتَّذكير، والذين يذكرون الله في كلّ أحوالهم، ويتفكَّرون في عظمة الله، أو يتبعون أحسنَ القول، يأخذون العبرة من القصص القرآني[٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٨).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على (المسند: ١٢٨٢)، قال الأرنؤوط: «صحيح لغيره».
(٣) مقاييس اللغة (لبب).
(٤) لسان العرب (لبب).
(٥) الفروق في اللغة (٧٦).
(٦) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (٤/ ٢٢٨).

وأمَّا في السُّنَّة؛ فلم يرد بحسب (المعجم) إلَّا في موضعين: الأوَّل: في سياق غلبة النِّساء لذي اللُّب، أو ذوي الألباب. والثَّاني: في سياق أنَّ الرُّؤيا، لا تقصّ إلَّا على اللَّبيب أو الحبيب.

٤- النُّهى:

جمع نُهية بضم النُّون، وقد تفتح، وهو: العقل، وسُمِّي العقل بالنُّهية؛ لأنَّه ينهى صاحبه عن فعل القبيح. والفرق بين العقل والنُّهى: أنَّ النُّهية من النِّهاية في المعارف، والمتَّصف بها يصلح أن ينتهى إلى رأيه[١].

وقد ذكرت النُّهى في القرآن مرَّتين في (سورة طه، الآيتان: ٥٣، ١٢٦)، في مقام المدح، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه]، قال ابن جرير: أهل الحِجَا والعقول، وقال: «خُصُّوا بالذِّكر لأنّهم أهل التَّفكُّر والاعتبار، وأهل التَّدبُّر والاتِّعاظ»[٢].

وأمَّا في السُّنة؛ ففي الحديث: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى»[٣]، وقول لأبي وائل: «لقد علمت مريمُ أنَّ التقي ذو نهية»، قال ابن حجر: «أي «ذو عقل»[٤].

٥- الحلم:

قال الزَّمخشريُّ: فيه حلم، أي: أناة وعقل[٥]، وقال ابن منظور: الأناة والعقل: هو نقيض السَّفه[٦]. وذكر في موضع واحد في القرآن بصيغة الجمع ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور]، قال البغوي: عقولهم، وفي السنة: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى».

٦- البصيرة:

الخليل: البصيرة: اسمٌ لما اعتقد في القلب من الدِّين وحقيق الأمر، والبصيرة: العِبرة[٧]، الرَّاغب: البصر يقال للجارحة وللقوّة التي فيها، ويقال لقوّة القلب المدركة: بصيرة، وجمع

---

(١) الفروق في اللغة (٧٧).
(٢) تفسير ابن جرير (سورة طه: ٥٣).
(٣) أخرجه مسلم (٤٣٢).
(٤) فتح الباري (٦ / ٤٧٩).
(٥) أساس البلاغة (حلم: ٩٣).
(٦) لسان العرب (حلم).
(٧) كتاب العين (بصر).

البصر: أبصار، وجمع بصيرة: بصائر[١] . قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ وَذِكْرَىٰ [ص: ٤٥] الأيدي: «القوة» والأبصار: «العقول»، وقال ابن جُزَي: «بصائر: جمع بصيرة، وهو نور القلب، والبصر: نور العين»[٢].

وقد ذكرت في القرآن أكثر من ١٥ مرَّة، بمعنى العلم والتبصر والعقل؛ وقوّة القلب وعقيدته، والفِطنة والحُجّة والبيان، والتَّأمُّل والاعتبار والبرهان، واليقين، والحق، والاهتداء، وفي حقِّ الله وردت بمعنى الخبير المحيط علمه بكلّ شيء ٣٢ مرَّة. أمَّا في السُّنَّة فقد وردت أكثر من ٦ مرَّات، بمعنى: العلم والقوة فيه، والبيان.

٧- **العلم:**

قال ابن فورك: حدُّ العلم معرفة المعلوم على ما هو به[٣]. وسبق القول بأنَّ العقل هو العلم، قال أبو هلال العسكريُّ: والفرق بينهما: «أنَّ العلم هو اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة»، والعقل: «هو ما يحصل للإنسان من معارف ومعلومات أولية، يحصرها بعقله»[٤]، وقيل: العقل: «مجرد الحفظ».

واعتبره ابن الجوزي من خواص النَّفس، وأشار إلى الخلاف في حدِّه، وشهَّر أنَّه: معرفة المعلوم، وأنَّه جاء في القرآن على أحد عشرَ وجهًا: العلم نفسه، الرُّؤية، الإذن، القرآن، الكتاب، الرَّسول، الفقه، العقل، التَّمييز، الفضل، ما يدَّعى بأنَّه علم وليس بعلم[٥].

وقد تكررت **مشتقاته** في القرآن ٧٦٠ مرَّة، إمَّا مدحا لمن يعلم، أو ذمًّا لمن لا يعلم، وفي السُّنَّة أيضًا، ذِكر بالمآت.

٨- الفهم:

ابن فارس: «علم الشيء»، الكفوي: «تصور الشيء من لفظ المخاطب، وتفهم الكلام: «إذا فهمه شيئا بعد شيء»[٦]. وسبق أنَّ من معاني العقل: الفهم، عند الخليل وابن فارس، وغيرهما. ولم يُذكر في القرآن إلَّا مرَّة واحدة، في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾[الأنبياء].

---

(١) المفردات (٤٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (الأنعام: ١٠٧).
(٣) الحدود لابن فورك (٧٦).
(٤) الفروق (٧٣، ٧٥، ٧٦).
(٥) نزهة الأعين النواظر (٤٥١-٤٥٣).
(٦) مقاييس اللغة (فهم)، والصِّحاح (فهم)، الكليات (٦٩٧).

وأمَّا في **السنة**: فقد تجاوز ذكره الأربعين مرة، في بعضها جمع بينه وبين العقل، مثل: «فاعقل إذن، أو افهم»[١]، وقول عمر لأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فعليك بالعقل والفهم، وكثرة الذِّكر»[٢].

٩- الحجر:

ابن فارس: والعقل يُسمّى «حِجرًا؛ لأنَّه يمنع من إتيان ما لا ينبغي»[٣]، وقد ذُكِر مرَّة واحدة في القرآن في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر] أي: لذي النُّهى والعقل، وذي اللُّب، والحِجا والرّأي والحِلم[٤]، ولم أقف عليه في السُّنَّة.

١٠- الحجا:

بالكسر والقصر، كإلى: العقل والفِطنة، جمع أحجاء[٥]، والفرق بين العقل والحِجا: أنَّ الحِجا هو ثبات العقل، من قولهم: تحجا بالمكان: إذا أقام به[٦]، ولم يُذكر في القرآن، وذُكِر في السُّنَّة، كما في حديث: «**حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ، قَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ**»[٧]، وفي البخاري: «ويقال: للعقل حِجر وحِجَا»[٨]

١١- الرُّوع:

قال الخليل: ورُوع القلب: ذهنه وخلده، الجوهري: الرُّوع بالضم: القلب والعقل، وفي المصباح: الخاطر والقلب[٩]. لم يذكر في القرآن، وذُكِر في السُّنَّة: «**إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رَوْعِي**»[١٠].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣١٦٤).
(٢) مسند الفاروق لابن كثير (٢ / ٥٤٧).
(٣) المقاييس (حجر).
(٤) تفسير ابن جرير (سورة الفجر: ٥).
(٥) المصباح المنير والقاموس (حجا).
(٦) الفروق (٧٧).
(٧) أخرجه مسلم (١٠٤٤).
(٨) صحيح البخاري (٤/ ١٤٨).
(٩) العين والصحاح والمصباح المنير (روع).
(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢)، والبزَّار (٢٩١٤)، وصححه الألباني في (صحيح التّرغيب والتّرهيب: ١٧٠٢).

١٢ - الإرب:

ابن فارس: العقل يقال له: إرْب وإرْبة، والنَّعت منه: أريب[١]، وقال أبو هلال العسكري: والفرق بين العقل والإرب: أنَّ العقل يفيد وفور العقل[٢].

١٣ - الذِّهن:

الفِطنة للشَّيء، والحفظ له، والعقل[٣].

١٤ - الزَّبر:

الإحكام والتَّوثيق، ويقال: ما له زَبر، أي: ما له رأيٌ ولا عقلٌ[٤].

١٥ - الحصافة:

تشدَّد في الشَّيء وصلابة وقوّة، ويقال: لمكانة العقل: حَصافة، والحصافة: نُخالة العقل؛ وحصف حَصافة: إذا كان جيِّد الرَّأي، شديد العقل[٥].

١٦ - الحصاة:

العقل والرَّزانة، قال ابن فارس: الحصاة: العقل، وما له حصاة، أي ما له عقل[٦]، يقال: هو ثابت الحصاة: إذا كان عاقلًا، وذو حصاة وأصاة: أي عقل ورأي، وفلان حصَي حصيفٌ ومستحص: إذا كان شديد العقل[٧].

٧- مصطلح العقل في القرآن والسنة

أمَّا في القرآن فيقول ابن تيمية: «لفظ العقل ليس له وجود في القرآن، وإنّما يوجد ما تصرّف منه لفظ العقل، نحو: (يعقلون، وتعقلون): ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ بِٱلْبَيِّنَٰتِ [العنكبوت: ٤٣]

---

(١) مقاييس اللغة (أرب).
(٢) الفروق (٧٦).
(٣) مقاييس اللغة والصحاح واللسان (ذهن).
(٤) مقاييس اللغة ولسان العرب (زبر).
(٥) مقاييس اللغة ولسان العرب (حصف).
(٦) مقاييس اللغة (حصو).
(٧) لسان العرب (حصى).

[١]، والأمر كما ذكر، بإضافة (عقلوه، ونعقل)، فقد وردت كلمة (تعقلون) ٢٤ مرّة، و(يعقلون) ٢٢ مرَّة، (وما يعقلها، وعقلوه، ونعقل) مرَّة واحدة، ليكون مجموع ما ذُكِر في القرآن من مشتقات العقل ٤٩ مرَّة، منها ١٧ في مدح المستخدم لعقله، و٣٢ في ذمِّ المعطِّل لعقله.

وأمَّا العقل في السُّنَّة: فيقول أبو حاتم ابن حبان البُستي: «لستُ أحفظ عن النَّبيِّ ﷺ خبرًا صحيحًا في العقل»[٢]، يعني: في فضله، وقال ابن الجوزيِّ: «رويت في العقل أحاديث كثيرة ليس فيها شيءٌ يثبت»[٣]، وقال ابن تيمية عن العقل في السُّنَّة: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»[٤]، وهذا الحديث ونحوه لا يتناقض مع القول بعدم صحة أحاديث فضل العقل، لأنَّ هذا في نقصانه[٥].

وقال ابن القيِّم: «أحاديث العقل كلُّها كذب»[٦].

وكون العقل لم يصح في فضله حديث، لا يعني: أنَّ السُّنَّة أهملته، ولم ترفع من شأنه، بل إنّها كما القرآن ركَّزا على الجانب العملي للعقل، لذلك؛ جاء ذِكره في القرآن والسُّنَّة بأعماله وأفعاله، والدّعوة إلى استعماله في نصوص كثيرة، فقد رجعت إلى مادة «عقل» في حدود (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث)، فوجدتها وردت في ٧٥ حديثًا تقريبًا، سبعة منها بلفظ المصدر، إمَّا مفردًا أو جمعًا، وكلّها في سياق نفي العقل ونقصانه، والباقي أفعال مشتقة من العقل، وجاءت سياقاتها بين الإثبات والنَّفي، ففي سياق الإثبات جاء بمعنى: الحفظ وقوته، والفهم والفقه والتفقه، والتذكر، والتدبر، والوعي، وحسن النظر، وإدراك الأمور، واستيعابها بحسن الملاحظة، والمروءة، والرَّزانة، والثَّبات، والعقل الرَّاجح، والعقل الكامل السَّليم، والصَّبر، والعلم بتعاليم الإسلام، والاجتهاد في الطَّاعة، والبلوغ والتمييز، وضدّ النَّوم والنِّسيان، والإغماء والجنون والغضب. وأمَّا سياق النفي؛ فجاء بمعنى: الجنون، وعدم البلوغ، وعدم التمييز، والإغماء، والمخمور، وانشغال البال، وضعف الرأي، وانعدام النظر، ونفي الإيمان، وكثرة القتل بين الناس لِقِلّة العقلاء[٧].

---

(١) بغية المرتاد (٢٤٨

(٢) روضة العقلاء (١٦).

(٣) الموضوعات (١/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٢).

(٥) بغية المرتاد (٢٤٨-٢٤٩).

(٦) المنار المنيف (٧٤).

(٧) كل المعاني التي سقتها مفصَّلة في سياق الإثبات أو النفي، لها أصلٌ في السُّنَّة الصَّحيحة.

المبحث الثاني في تعريف التفكير وروده في الكتاب والسنة

ما قيل في شأن العقل من حيثُ صعوبة ضبطه وعقله، قريبٌ منه يقال في شأن الفكر والتَّفكير، فهو من الكلمات الحاضرة جدًّا في الاستعمال، لكنها شبه غائبة من حيثُ الشَّرح والبيان، لذلك اختلف العلماء في حدِّها قديمًا وحديثًا، حتى إنَّك لا تستطيع أحيانًا أن تفرِّق بين التَّعريف اللُّغوي والاصطلاحي، لشدَّة التَّداخل بينهما، ثمّ إنَّ مادته قليلة في كتب اللُّغة، وبعض كتب غريب الحديث لم تعرِّج عليه أصلًا، وقد حاولت التَّفريق بين اللُّغوي والاصطلاحي عند النَّقل من بعض المصادر التي تداخل عندها التَّعريفان، كالراغب والفيومي.

١- التعريف اللغوي

الخليل: «الفكر: اسم التفكير، فكَّر في أمر، وتفكَّر، ورجل فكّير: كثير التَّفكير، والفكرة والفكر واحد»[١]. **الجوهري**: «الفكر: التَّأمُّل»[٢]. **ابن فارس**: «فكَّر: تردَّد القلبُ في الشَّيء، يقال: تفكَّر إذا ردَّد قلبَه معتبرا»[٣]. **الرَّاغب**: «والفكر مقلوبٌ عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها»[٤].

الخليل: «الفركُ: دلكُكَ الشَّيء حتى ينقشر عن لُبِّه كالجوز»[٥]، وعلى هذا يكون الفكر في المعاني، والفرك في المحسوسات.

ابن منظور: «الفكر إعمال الخاطر في الشَّيء»[٦]، **الفيروزابادي**: «إعمال النَّظر في الشَّيء»[٧]، **الفيومي**: «تردُّد القلب بالنَّظر والتَّدبُّر لطلب المعاني، ولي في الأمر فِكرٌ، أي: نظرٌ ورؤيةٌ، والفكر اسمٌ من الافتكار، مثل العبرة من الاعتبار»[٨].

---

(١) كتاب العين (فكر).
(٢) الصِّحاح (فكر).
(٣) مقاييس اللغة (فكر).
(٤) المفردات (٣٨٤).
(٥) كتاب العين (فكر).
(٦) لسان العرب (فكر).
(٧) القاموس (فكر).
(٨) المصباح المنير (فكر).

يتلخص ممَّا سبق أنَّ التَّفكير: تأمُّل وتردُّد القلب في الشَّيء معتبرًا، وإعمال النَّظر والخاطر في الشَّيء، وأنَّه طلبٌ وبحثٌ في المعاني من أجل الوصول إلى حقائق الأمور بطريقة تشبه فرك المحسوسات من أجل الوصول إلى لُبِّها.

٢- التَّعريف الاصطلاحي

عرَّفه الرَّاغب بقوله: «الفكرة قوَّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفكير جَوَلان تلك القوَّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يُقال إلَّا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا رُوي: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله**»[(١)]؛ إذ كان الله منزَّهًا أن يوصف بصورة[(٢)].

وقد حاول أبو حامد الغزالي تقريب حقيقة التَّفكير والجمع بينه وبين مرادفاته، وما يتَّفق معها من وجه وما يختلف، فقال ما ملخصه: «اعلم بأنَّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة»[(٣)]، أي: إنَّه ينطلق من مقدمتين صحيحتين، عبّر عنهما بالمعرفتين، ليصل إلى نتيجة، وهي التي عبّر عنها بالمعرفة، مثال ذلك: معرفة أنَّ «الأبقى أولى بالإيثار»، ثمّ يعرف «أنَّ الآخرة أبقى»، النتيجة: «أنَّ الآخرة أولى بالاعتبار»، فانطلق من معرفتين سابقتين في القلب، ليتوصَّل بهما إلى معرفة ثالثة.

هذه العملية: تُسمَّى تفكُّرًا واعتبارًا، وتذكُّرًا ونظرًا، وتأمُّلًا وتدبُّرًا. أمَّا التَّدبُّر والتَّأمُّل والتَّفكُّر، فكلمات مترادفة، وأمَّا اسم التَّذكر والاعتبار والنَّظر؛ فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمّى واحدًا، مثل أسماء السَّيف، فالصَّارم من حيثُ كونه قاطعًا، والمهند من حيثُ نسبته للموضع، والسَّيف بدلالته المطلقة المتجرِّدة عن أي وصف، فالتَّوارد على شيء واحد، لكن باعتبارات مختلفة، فالاعتبار سُمِّي بذلك؛ لأنَّ فيه عبورًا من معرفتين إلى ثالثة، فإذا لم يعبر سُمِّي ذلك تذكُّرًا.

وأمَّا النَّظر والتَّفكُّر، فيطلق عليهما الاعتبار إن كان فيهما طلب للمعرفة، وإلَّا فهو تذكُّر، فكلّ متفكِّر متذكِّر، وليس كلُّ متذكِّر متفكِّرًا، وفائدة التذكار، هو تكرار المعارف على

---

(١) أخرجه الطّبراني في (الأوسط: ٦٣١٩)، وأبو الشيخ في (العظمة: ١)، والبيهقيُّ في (الشّعب: ١١٩)، وحسَّنه الألباني في (الصحيحة: ٤/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) المفردات (٣٨٤).

(٣) ما بين المعقوفتين نقله ابن القيم بلفظه في مفتاح دار السعادة (١/ ١٨١)، وشرحه.

القلب لتَرسخ فيه، وفائدة التَّفكُّر، تكثير العلم واستجلاب معرفةٍ ليست حاصلة، وبهذا يعلم الفرق بينهما، وكلما اجتمعت المعارف في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص= أثمر ذلك معرفة أخرى، فالمعرفة تنتج المعرفة، وهكذا يتمادى النتاج والعلوم والفكر إلى غير نهاية، فالمعارف هي رأس المال الذي به تستمر العلوم، فمن لا معرفة له كمن لا بضاعة له، ففي أي شيء سيستثمر، وكما أنه قد يملك الشخص البضاعة ولا يربح؛ لأنه لم يحسن التجارة، فكذلك قد يكون مع الشَّخص معارف ولا ينتج علمًا ولا معرفة؛ لأنه لا يحسن استعمالها، ومعرفة طريق استثمار المعارف تكون بالتَّعلُّم والممارسة، وثمرة الفكر هو ما يحصل عليه المتفكِّر من علوم وأحوال وأعمال[١].

وقال **الهرويُّ**: «هي تلمُّس البصيرة لاستدراك البغية»، وضَّحه ابن القيِّم بقوله: «أي: التماس العقل المطلوب بالتَّفتيش عليه»، وقال أيضًا: «الفكرة تحديد القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له»[٢]، وقال عن العلاقة بين التَّذكُّر والتَّفكُّر: «فمنزلة التَّذكُّر من التَّفكُّر منزلة حصول الشَّيء المطلوب بعد التفتيش عليه»[٣].

الفيومي: «الفكر ترتيب أمور في الذِّهن، يتوصَّل بها إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًّا»[٤].

الجرجاني: «ترتيب أمور معلومة للتَّأدِّي إلى مجهول»[٥].

الكفوي: «والفكر: حركة النَّفس نحو المبادئ والرُّجوع عنها إلى المطالب»[٦].

ابن عاشور: «جَوَلان العقل في طريق استفادة علم صحيح»[٧].

المعجم الوسيط: «فكَّر في الأمر فَكْرا: أعمل العقل فيه، ورتَّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول»[٨].

---

(١) الإحياء (٦/ ٤٦-٤٨).
(٢) مدارج السالكين (١/ ١٦٦).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠).
(٤) المصباح المنير (فكر).
(٥) التعريفات (١٦٨).
(٦) الكليات (٦٩٧).
(٧) التحرير والتنوير (سورة الأنعام: ٥٠).
(٨) المعجم الوسيط (فكر).

وأمَّا عند المعاصرين، فقد جعل الأستاذ عبد الكريم بكَّار (الفكر والتَّفكير) من الكلمات الغامضة التي نستخدمها ولكن نعجز عن شرحها، لكنّ العلماء ركَّزوا على خاصيتين في التَّفكير، وهما: تكامل الخبرات السَّابقة وتنظيمها من ناحية، واكتشاف الاستجابات الصَّحيحة من ناحية أخرى.

والمعاصرون عرَّفوا التَّفكير كلٌّ بحسب تخصصه، فالمناطقة قالوا: «هو مجموعة الأساليب التي يتبعها العقل لمعرفة السَّبب واكتشافه»، وعلماء النَّفس قالوا: «هو استخدام الوظائف النَّفسية لحلِّ المشكلة»، وعلماء التّربية قالوا: «هو نشاط عقلي هادف منظَّم، لحلّ مشكلة واكتشاف مجهول، أو تفسير ظاهرة نشاط بأدوات، تتفاوت فيه عقول النَّاس بحسب صعوبة المشكلة أو المسألة المجهولة».

قال الأستاذ بكَّار: جميع هذه التَّعريفات تتلخص في: «تردُّد العقل في جملة من المعطيات توسلًا إلى ما يرتبط بها من المجهول بطريقة منهجية». وعرَّف التَّفكير العلمي بقوله: «مجموعة من المبادئ التي توجِّه العلماء عند البحث عن المعرفة الجديدة»، والتَّفكيرَ الموضوعيَ بقوله: «مجموعة الأساليب والخطوات والأدوات التي تمكننا من الوقوف على الحقيقة، والتعامل معها على ما هي عليه، بعيدًا عن الذَّاتية والمؤثرات الخارجية».

وفيه غير هذا من التَّعاريف ممَّا يدلّ على اختلاف كبير في حدِّه، ومن كلِّ ما سبق يمكن الخروج بتعريف مختصر مبنى على أربعة أركان وشروط أربعة، وشرح كلّ ركن سيكون بإيراد كلّ التَّعابير التي عبّر بها السّابقون عنه.

٣- التعريف المختصر المختار

التَّفكير: عملٌ عقليٌ، في واقع معيَّن، وَفق منهج معيَّن، قصد الوصول إلى نتيجة معيَّنة.

١- عمل عقلي: عمل القلب، نظر عقلي، نشاط عقلي، جولان العقل، تردد العقل، عمل الذهن، حركة النفس، استخدام الوظائف النفسية قوة مطرقة.

٢- في واقع معين: أمور معلومة، بعض ما يعلم، علوم ومعارف، مجموعة معطيات، بين المبادئ والمطالب، تجارب سابقة، مقدمات، مشكلة من المشاكل، الآيات المسطورة، الآيات المنظورة.

٣- وفق منهج معين: التأمل، النظر، التدبر، الاعتبار، إعمال النظر، إعمال الخاطر، حركة بين المبادئ والمطالب، ترتيب مخصوص، نشاط هادف منظم، أساليب معروفة، خطوات محسوبة، أدوات معلومة، مبادئ محدودة.

٤- قصد الوصول إلى نتيجة معينة: الوصول إلى مطلوب، أو مجهول، أو علم صحيح، أو معرفة السبب واكتشافه، أو معرفة جديدة، أو حل مشكلة، أو الوقوف على حقيقة.

الشروط الأربعة:

١- أن يكون التفكير في متصوَّر عقلا، فالتفكير في ذات الله لا يجوز، لأنه خارج عن طور العقل.
٢- تحديد الهدف والاقتناع بفائدته، فالتفكير بلا هدف ولا اقتناع بفائدته عبث.
٣- عدم العجلة في الوصول إلى النتيجة والحسم فيها، فلابد من طول الفكر والفرك.
٤- التجرد التام عن كل المؤثرات، والاتجاه نحو الحقيقة وحدها.

ويمكن تعريف التفكير في تعظيم الله بما يلي: «**التأمل والتدبر والنظر في آيات الله المسطورة والمنظورة، وفق منهج علمي سليم قصد الوصول إلى تعظيم الله جل وعلا في القلوب**»

٤- من أسماء التفكير

ذكر ابن القيم له سبعة أسماء: فقال ما ملخصه: «إنَّه يُسمّى تفكُّرًا، وتذكُّرًا، ونظرًا، وتأمُّلًا، واعتبارًا، وتدبُّرًا، واستبصارًا، وهذه معان متقاربة تجتمع في شيء وتتفرَّق في آخر، سُمِّي تفكُّرًا؛ لأنَّه استعمال الفكرة في ذلك، وتذكُّرًا؛ لأنّه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته، ويُسمَّى نظرًا؛ لأنَّه التفاتٌ بالقلب إلى المنظور فيه، ويُسمَّى تأمُّلًا؛ لأنَّه مراجعة للنَّظر كرَّة بعد كرَّة، ويُسمَّى اعتبارًا؛ لأنَّه يعبر منه إلى غيره، ويُسمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّه نظرٌ في أدبار الأمور وعواقبها، ويُسمَّى استبصارًا، من التَّبصر وهو تبين الأمر وانكشافه»[1].

٥- من ضوابط التفكير

للشَّيخ عبد العزيز الطَّريفي كلام جيد في ضبط التَّفكير، وملخصه: يجب أن يكون التَّفكير موازيًا للعلم، لأنَّه يكون بالتَّأمُّل في المعلوم لا في المجهول، فإذا كان التَّفكير كثيرًا والمعلوم قليلًا، خرج عن الانتفاع به إلى الضَّرر منه؛ لأنَّ التفكير بلا علم يخرج من التأمل في المعلومات، إلى التأمل في النفس ورغباتها وطبائعها وخطراتها، والتفكير الكثير مع قِلّة العلم يورث النفس غرورًا بسبب ما يتولّد لديها من جزئيات دقيقة، قد لا يجدها عند غيره، فيتوهَّم أنَّه الأعلم، ويزداد ضرر تفكيره؛ لأنَّه يفكِّر في خطرات نفسه ويظنُّ أنّه يفكِّر بعقله في المعلومات، وقد يتطور الأمر

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢-١٨٣).

إلى التفكير فيما أنتجه من شرور، ليرتبه في صور وأشكال قد تحير بعض الأذكياء، والتَّفكير بلا علم تفكير في إبداع الجهل وتنظيمه؛ لأنَّ العقل آلة للتَّفكير في كلِّ مرئي ومسموع ومعلوم، فإن كان صالحًا أنتج صلاحًا، وإلَّا أنتج فسادًا، كحال الوليد بن المغيرة لما فكَّر طويلا بعقله الفاسد، ليصل إلى نتيجة ترضي نفسه وقومه، فقال عن القرآن: ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدَّثر: ٢٤]، وكثير من المتعصبين للأديان والفرق والمذاهب لا يفكِّرون من أجل الوصول إلى الحقيقة، وإنَّما من أجل نصرة دينهم وفرقتهم ومذهبهم»[(١)].

٦- التفكير وبعض مفاهيمه في القرآن

ممَّا يدلّ على أهمية التَّفكير: أنَّ القرآن اهتمّ به كثيرًا في جميع المجالات، ودعا إليه بأساليب مختلفة وبمفردات أخرى مترادفة أو متحدة معه في النتيجة، وقد وردت مشتقات التَّفكير في القرآن ثماني عشرة مرّة، كلّها بصيغة الفعل: (فكَّر) مرَّة واحدة، (تتفكروا) مرَّة واحدة، (يتفكَّروا) مرّتين، (تتفكَّرون) ثلاث مرَّات، (يتفكَّرون) إحدى عشرة مرّة، المجموع ١٨؛ خمسة منها في ذمِّ من لا يفكِّر، أو يفكِّر بالباطل، وثلاثة عشر موضعًا في مدح التَّفكير والدَّعوة إليه، وهناك مفاهيم أخرى لها صِلة بالتفكير، إمّا بالتّرادف أو بالتَّوافق في النتيجة، فمن الألفاظ التي جعلها البعض من التّرادف:

التَّدبُّر: وقد ذكرت أربع مرَّات في القرآن، واحد منها في مدح المتدبِّرين: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، وثلاثة في ذمِّ التَّاركين للتَّدبُّر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في موضعين [النساء: ٨٢، محمّد: ١٩]، ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾[المؤمنون: ٦٨].

النَّظر: ذُكِر في خمسين موضعًا بمعنى التَّفكُّر والتَّأمُّل، منها ثلاثة وثلاثون موضعًا تتعلَّق بتعظيم الله: كالنَّظر في عاقبة مَن أهلكهم الله، والنَّظر في ملكوته وبعض مخلوقاته، وسبعة عشر موضعًا في أمور أخرى مختلفة.

الرُّؤية: في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾[الأنبياء: ٣٠]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡيِۦَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[الأحقاف: ٣٣].

التَّذكُّر: في سبعة وسبعين موضعًا كلّها في سياق مدح المتذكِّرين.

---

(١) الفصل بين النفس والعقل (١٨٠-١٨١).

الفقه والتَّفقه: في عشرين موضعًا، أربعة منها في مدح المتفقهين، والباقي في ذمِّ الذين لا يفقهون.

الاعتبار: في سبعة مواضع كلّها في سياق المدح.

الاستنباط: في موضع واحد في مقام المدح.

الفهم: في موضع واحد في مقام المدح، ويجتمع التَّفكير مع المستفيدين ممّا يَنصِبه الله تعالى من آيات للعباد، ويقول بعدها: لقوم يتفكَّرون، يوقنون، يعقلون، يفقهون، يؤمنون، يذكرون، يشكرون، يتقون، يسمعون، وكذلك بعد قوله: لعلَّهم، أو لعلّكم، مثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٧- ورود التفكير في السُّنَّة

لم يرد لفظ التَّفكُّر كثيرًا في السُّنَّة بحسب (المعجم المفهرس)، وممَّا وقفتُ عليه فيه وفي غيره: ما ورد في صفة النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان دائم الفكرة أو الفكر[(١)].

والرَّجل الذي طلب الوصية، فقال له الرَّسول ﷺ «**لا تَغْضَب**»، قال: ففكَّرت حين قال ما قال، فإذا الغضب يجمع الشَّرَّ كلَّه[(٢)].

وفي قصة ربيعة بن كعب الأسلميِّ، الذي قال له الرَّسول ﷺ: «**سَلْني**»، قال: ففكَّرت في نفسي فعرفت أنَّ الدنيا منقطعة[(٣)].

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل لمَّا أخبر بالمبَشرين بالجنَّة، قيل له: من العاشر؟ فتفكَّر ساعةً، ثمَّ قال: أنا[(٤)].

وحديث: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَتَفَكَّرَ ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُ، وَأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ قَدْ شَغَلَهُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، فَتَسَرَّبَ فَانْسَابَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ قَصْرِهِ**»[(٥)].

والصَّحابيّ الذي علَّمه النَّبيُّ ﷺ «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[(٦)]، ومضى وتفكَّر ثمّ رجع، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «تفكُّر البائس»[(٧)].

---

(١) أخرجه البيهقيّ في (دلائل النبوة ١/ ٢٨٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٧١)، وصحح الأرناؤوط.
(٣) أخرجه أحمد (١٦٥٧٩)، وحسّنه الأرناؤوط، والألباني في (إرواء التعليل ٢/ ٢٠٨).
(٤) أخرجه ابن حبّان (٦٩٩٦).
(٥) أخرجه أحمد (٤٣١٢)، وحسّنه الأرناؤوط.
(٦) أخرجه البيهقيُّ (٦١٧)، وصححه الألبانيّ في (الصحيحة: ٣٣٣٦).
(٧) أخرجه البيهقيّ في (شعب الإيمان: ١٦١٣)، وصححه الضياء في (المختارة: ١٦١٣)، والألباني في (الصحيحة: ٣٣٣٦).

وقصه الوليد بن المغيرة مع القرآن، فلما فكَّر قال: ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدَّثر: ٢٤]، وحديث: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله**»(١).

يلاحظ أن كل موارد الفكر في هذه النصوص جاءت في سياق التفكير في الخير، ماعدا موضعًا واحدا في قصة الوليد ابن المغيرة.

(١) أخرجه الطّبراني في (الأوسط: ٦٣١٩)، وأبو الشيخ في (العظمة: ١)، والبيهقيُّ في (الشّعب: ١١٩)، وحسَّنه الألباني في (الصحيحة: ٤/ ٣٩٥-٣٩٧).

المبحث الثالث: منهج القرآن في إصلاح العقل ومنهج التفكير

١- علاقة العقل بالقلب والنفس

الحديث عن إصلاح العقل والتفكير لا ينفصل عن إصلاح القلب والنفس؛ لأن العقل يتلق الأوامر منهما، فالعقل ما هو إلا آلة يشتغل بها القلب، وتتعارك معها النفس، والأمر في النهاية للأقوى منهما، والحديث عن القلب والنفس، حديث عن أصل عملية إصلاح العقل والفكر سلبا وإيجابا، فالأصل هو القلب لأنه إذا صلح، صلح بصلاحه سائر الجسد، كما في الحديث: «أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»[١]، والقلب هو محلّ نظر الله أيضًا، كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٢].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك؛ خبثت جنوده»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمَّا القلب فهو الملك المستعمِل لجميع آلات البدن. وبه قوام الحياة، وهو منبع الرُّوح الحيواني والحرارة الغريزية، وهو معدن العقل والعلم والحلم، والشَّجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحبّ والإرادة والرِّضا والغضب، وسائر صفات الكمال، فجميع الأعضاء الظَّاهرة والباطنة وقواها إنّما هي جندٌ من أجناد القلب»[٤]، وقال: «جميع العروق التي في البدن كلّها متصلة بالقلب، ولا ريبَ أنَّ مبدأ القوَّة العاقلة منه، وهي قوّة معنوية لا يحتاج في وصولها إليه أعصاب»[٥].

فالعقل آلة يعقل بها القلب، والتفكير عملية يقوم بها العقل، والنَّفس برغباتها وشهواتها وطبائعها تتعارك مع العقل، فإن كانت تقية زكية مطمئنة، لن يجد معها العقل مشكلة، وفكّر تفكيرًا سليمًا، وإن كانت النَّفس لوَّامة أو أمَّارة بالسُّوء، فإنّها ستحاول التَّأثير على العقل

---

(١) متّفق عليه؛ صحيح البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه البيهقيُّ في (شعب الإيمان: ١٠٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٣).

(٥) المصدر نفسه (١/ ١٩٥).

لكي يفكر في مصلحتها، فإن كان العقل قوِّيًا بإيمانه وعلمه وتجاربه، فرض وجودَه وفكّر بما يرضى الرَّبّ سبحانه وتعالى، وإن كان ضعيف الإيمان والعلم والخبرة، سيطرت عليه النَّفس ووجَّهته حيثُ شاءت، وقوَّة النَّفس ليست ذاتية، وإنَّما هي بسبب ضعف العقل وقِلّة خبرته بحيلها ومكايدها.

وبهذا يعلم أنّ كلّ الآيات القرآنية والأحاديث النَّبوية التي جاءت في إصــلاح القلب وعلاجه، وتزكيةً للنَّفس ومجاهدتها، هي موجهة بالتّبع إلى إصـلاح العقل ومنهج التفكير، ولذلك؛ فإنَّ العقل والتَّفكيرَ لم يرد في حقِّهما ذَمٌّ لذاتها، وإنَّما الذَّمُّ جاء في عدم استخدامها، وأكثر من ذلك؛ فإنَّ آيات الله وحججه التي يســتدلّ بها على عظمته غير موجهة للذين لا يعقلون ولا يفكرون.

وأمَّا القلب والنَّفس؛ فقد ورد في حقِّهما المدح والذَّمُّ لذاتهما، فالقلب منه السَّليم والمريض، والنَّفس منها المطمئنة والأمَّارة بالسُّوء، وغالب نصوص الوحي الواردة في النَّفس هي في ذمِّها والتَّحذير من شرورها حتى يكون الإنسان دائمًا منتبهًا إليها، وفي الحديث: «والمجاهد من جاهد نسفه في ذات الله»[1]

٢ - منهج القرآن في إصلاح القلب

يقوم منهج القرآن في إصلاح القلب على الثُّنائية المعهودة في القرآن، وذلك بذكر صفات القلوب السَّليمة، وصفات القلوب المريضة، ترغيبًا في الخير وترهيبًا من الشَّرِّ، وتذكيرًا للفريقين بصفات أهل الخير وأفعالهم ليقتدوا بهم، وصفات أهل الشَّرِّ وأفعالهم ليجتنبوها، قال ابن عاشور: «وذلك؛ أنَّ القرآن ما ذكر موعظة ترهيبًا إلَّا أعقبه بترغيب وبشارة»[2].

وهو منهج تربوي قرآني، مبنيٌ على هداية البيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[الإنسان]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[البلد]، فالقرآن يبين سبيل الرُّشد وسبيل الغَي، ثمّ يترك الخيار للنَّاس ليتحملوا مسؤولية اختيارهم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[الزلزلة]، وقد تتبعت الآيات القرآنية التي فيها صفات القلوب الصالحة وأفعالها، فوجدت أن القرآن نص على علاج القلب وإصلاحه بأعمال قلبية كثيرة.

---

(١) أخرجه التّرمذي (١٦٢١)، وصحَّحه الألباني في (الصَّحيحة: ٥٤٩).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (الزّمر: ٢٣).

منها: الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: ١١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ٤]، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾[الأنفال: ٧٠]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد: ٢٨].

ومنها: التَّأمُّل في قدرة الله على الخلق، ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة: ٢٦٠]، قالها إبراهيم لما طلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى.

ومنها: ذكر الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد: ٢٨].

ومنها: تعظيم شعائر الله، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢].

ومنها: الخوف من أهوال يوم القيامة، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور: ٣٧].

ومنها: تذكر نعم الله -تعالى- على العباد، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٠٣].

ومنها: الابتلاء والتمحيص والامتحان، ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٤]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[الحُجُرات: ٣].

ومنها: التزام شرع الله في الحجاب والاستئذان، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٣].

ومنها: الدُّعاء، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران: ٨]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[الحشر: ١٠].

ومنها: خوف القلب ووجله والعمل بأوامر الله، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال: ٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[المؤمنون].

ومنها: الإيمان بالقرآن والتَّأثر به، والخشية عند سماعه، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج: ٥٤]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمَر: ٢٣]، ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦].

ومنها: التزام الولاء والبراء، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى

﴿قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[المجادلة].

ومنها: فضله ورحمته ونعمته، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾[الحُجُرات]، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾[الأنفال: ١١].

وكما قال المتنبي[1]:

..... وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ

ففي مقابل هذه الصِّفات الحسنة التي ذكرها القرآن للقلب الصالح، ذكر أيضًا صفات القلب المريض وأفعاله، وذلك لتجتنب، وقد سبق ذكرها في المبحث الأوَّل، وكذلك السُّنَّة أتت على عدد كبير من صفات القلب بنوعيها، فمن عمل بمقتضى ذلك امتثالًا واجتنابًا؛ صَلُح قلبُه، وبصلاح القلب يصلح العقل والفِكر.

٣ - العلاقة بين العقل والنفس

العقل له علاقة متداخلة مع النَّفس ومتشابكة، اتفاقًا واختلافًا، ومن لم يميِّز بينهما، ويعرف حدودَ كلٍّ منهما فإنَّه لن يستطيع الفصلَ في كثير من قضايا العقل، ولا ينتبه إلى هذا التَّداخل بينهما إلَّا مَن عرف طبائع النَّفس وأعراضها وشهواتها.

وأحسن ما وقفتُ عليه في هذا الموضوع بحسب اطلاعي هو كتاب: «**الفصل بين النَّفس والعقل**» للشَّيخ عبد العزيز الطَّريفي في ٢٠٠ صفحة، ونظرًا لأهمية كلامه سألخص منه بعض القضايا التي تساعدنا على فهم عمل العقل وأحكامه ونتائجه، وعلاجه وتصحيح مساره وعلاقته بالنَّفس، فقد ذكر أمورًا من المتفق والمفترق بين النَّفس والعقل، والمميزات بينهما، وأسباب ضعفهما وقوّتهما، وحقّ كلّ واحد منهما على الآخر، فكان ممَّا أفاد به:

أنَّ العقل لا يشتهي، لكنه يهدي صاحبه للتَّفكير، ويميّز للنّفس بين الخير والشَّرِّ بحسب علمه وخبرته، والنُّفوس تشتهي، ومختلفة في رغباتها، وإذا اهتمت بشيء استخدمت العقل ليوصلها إليه، وكلما قويت النَّفس بسبب ضعف العقل ضيَّقت واسعه، ومَن لم يميِّز بين

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي (١/ ١٤٩).

حقيقة العقل والنَّفس اختلط عليه الرَّأي بالهوى، وأصبح لا يفرِّق بين الدَّافع الدَّاخلي: هل هو العقل أم النَّفس، والنَّفس لها حقوقٌ، والذي يعرف هذه الحقوق ويحدِّدها هو العقل العالم المجرِّب، والعقل الجاهل تقوده النَّفس لخدمتها، وأكثر المؤثِّرات في مدرَكات العقل التي تغطي بصيرته، تدخل عليه من النَّفس. والنفس متمكنة في الإنسان أكثر من العقل، فهو يعيش بنفس وبلا عقل، ولا يعيش بعقل دون نفس، والعقل يتميّز بقبول العلم، والنفس تُعرف بالتَّحايل والتمرد، وهناك نفوس تستخدم العقل للحماية من تأنيب الضَّمير ولوم الناس، حتى تستمتع بدون مكدرات، وأخرى بليدة لا تكترث بلوم أحد[١].

إرادة الإنسان مركّبة من نفس وعقل، وكلّ منهما وعاء لمعاني معينة، فالنفس وعاء للرغبات والشهوات، والعقل وعاء للعلم والتجارب، ولكل منهما دوافعه، وبعض العلماء جعل النفس والعقل شيا واحدا، لكن قوتها مختلفة[٢].

من لم يعرف خصائص كلّ من النَّفس والعقل، التبست عليه الوسوسة بالتّفكير، وربما يَتْبَع شهوته باسم العقل، ويَحْرم نفسَه من حقوقها باسم الحزم والدّين، والنفس ليس لها حدٌّ لرغباتها، لذلك ضُبِطَتْ بالعقل والشَّرع، والعقول متقاربة فيما بينها، بينما الأنفس مختلفة جدًّا في أمزجتها. واختلاف الأمزجة يؤثِّر في ميزان العقل وتفكيره، وتفكير العقل والنَّفسُ مضطربة= يؤثِّر في نتيجة الحكم، وقد نُهي القاضي أن يحكم وهو غضبان، ويلام العقل على خطئه في النتيجة؛ لأنّه لم يقاوم طبع النّفس[٣].

العقل ميزان يعطي النتيجة بحسب ما يُعطى من المعلومات، والنَّفس إذا أرادت نتيجة معيّنة، زيَّنت للعقل ما تهواه بذكر محاسنه وإخفاء مساوئه، لتصل به إلى نتيجة تريدها، فمن لم يفرِّق بين عقله ونفسه؛ استعمل عقله في غير موضعه[٤].

العقل وعاء، إذا امتلأ بالعلم والخبرة والتفكير والإيمان والذكاء، قَلَّمَا يُغلب من نفسه الأمارة بالسوء، أو نفس غيره أو شيطانه، لكن هناك مؤثرات تؤثر في العقل، وهي ثلاثة أنواع: طبائع النفس، وشهواتها، وأعراضها.

---

(١) الفصل بين النفس والعقل (٥-٩).
(٢) المصدر نفسه (١١).
(٣) المصدر نفسه (١٥-١٧).
(٤) المصدر نفسه (٢١-٢٢).

فالنّوع الأوّل: الطبائع:

كالشَّجاعة والجبن والقوة والضَّعف والتَّأني والعجلة ..[١] الخ.

وهي نوعان: مجبولة: خُلقت مع الإنسان كحواسه، ومكتسبة: يتطبع عليها الإنسان أو يتعلمها[٢].

والإنسان عادة يميل إلى طبعه، فالنَّفس المطبوعة على الكرم تبحث عن أدلة الكرم وفضله، والمطبوعة على البخل كذلك، ومن أثر الطّبائع على العقل أنَّ النَّفس الغضوب لا تمنح العقل وقتًا للتَّأمُّل والتَّفكُّر؛ وأشدّ الطّبائع ضررًا على العقل هو الكبر[٣]. والنّفس المستعجلة والضيقة الحادة تمنع العقل من النظر في العواقب والمآلات[٤].

وعلاج هذه الطبائع يكون بمجاهدة النَّفس وترويضها، حتى تُصْبِحَ تابعة للعقل مستنيرة بنوره[٥]، فإصلاح العقل مرهون بإصلاح مثل هذه الطبائع.

النَّوع الثَّاني: الشَّهوات النَّفسية:

وهي أشدّ أثرًا على العقل من الطَّبائع، والشَّهوات ليست كلّها قبيحة في أصلها، كالطعام والشَّراب، واللِّباس والجماع، لكنها إذا زادت أو وُضِعت في غير محلِّها، تصبح حرامًا.

فصراع العقل مع النَّفس ليس في أصول مثل هذه الشَّهوات، وإنّما في معرفة الصَّالح منها، وزمانها ومكانها، ومقدارها وصفتها؛ لأنَّ النَّفس تتحايل على العقل، وربما خلطت بين الصَّحيح والخطإ؛ لتصل إلى بُغيتها، أو تصرفت تصرفًا صحيحًا؛ ليعود عليها ذلك بالنَّفع البعيد، والشَّهوات المعنوية أشدّ ضررًا من الشَّهوات المادية[٦].

والفرق بين الشَّهوة والرَّأي: أنَّ الشَّهوة دافعة للفكرة، وليست صانعة، والشَّهوات أحيانًا تتحوّل إلى شبهات، ثمّ مذاهب وعادات، وأديان وجماعات. وهذا النوع أخطر من الشَّهوة التي ينقاد لها العقل، وتبقى قناعته بأنّها شهوة؛ لأنَّ التي تحوَّلت إلى مذهب، سيشتغل أصحابها بتسويغها، والتَّدليل عليها، والدَّعوة علانية إليها[٧].

---

(١) الفصل بين النفس والعقل (٢٥ – ٢٦).
(٢) المصدر نفسه (٣٥).
(٣) المصدر نفسه (٤٩).
(٤) المصدر نفسه (٧٢-٧٣).
(٥) المصدر نفسه (٧٦).
(٦) المصدر نفسه (٩٦).
(٧) المصدر نفسه (١٠٠-١٠١).

وأقوى الشَّهوات تأثيرًا في العقول: شهوة الجاه والمال والنِّساء. وأمُّ الشَّهوات شهوة الجاه، وطرق النَّفس في الوصول إلى هذه الشَّهوات متعدِّدة ودقيقة، قد لا ينتبه إليها أحيانًا حتى العالم(١).

ومن حيل النَّفس: أنّها أحيانًا تتزاحم عندها الشَّهوات فتترك الشَّهوة الصَّغيرة من أجل الكبيرة، وتُظهر أنّها تركت الصَّغيرة من أجل الله(٢). وأقوى ما يتغلَّب به الإنسان على طبائع النَّفس وشهواتها: الإيمانُ بالله؛ لأنّه يضبط اندفاع النَّفس، ويحول بينها وبين التَّغلُّب على العقل، وكذلك العلم والخبرة بصفة عامّة، ويحيل النَّفس وحبائلها بصفة خاصّة (٣).

النَّوع الثَّالث: أعراض النَّفس

فطبائع النَّفس من حبّ وكره وفرح وحزن، قد تصبح أعراضًا إذا اعترت الإنسان، فإذا خرجت عن الحدّ الطبيعي أثَّرت في العقل تأثيرًا قد يصل إلى الحمق.

والأعراض تؤثِّر في اختيار العقل وحكمه، فالنَّفس التي طبيعتها العجلة إذا أضيف إليها عرض من الأعراض، شغل العقل وأصبح مُوَسْوَسًا، واختار الخطأ على عجل.

والأمور التي يراد الوصول إليها أو حلّها يحتاج بعضها إلى تفكير طويل، وبعضها يحتاج إلى عقول ومشورة، والعقل الذي يطيل النَّظر في الأمر العادي، ويستعجل النَّظر في الأمر الكبير عقلٌ مريضٌ(٤).

والأعراض أنواع: محبوبة كالفرح، ومكروهة كالحزن، وعامّة كالشّوق والحنين، وبعض النفوس إذا اعتراها عرض محبوب، كفرح شديد، لو طُلب منها كلّ ما تملك؛ لدفعته. ولذلك لا يجوز استغلال مثل هذه الأحوال(٥).

لا بدّ من حماية العقل من أعراض النَّفس، فالإنسان قد يكره الصَّواب ويحب الخطأ، ومحبّة الشَّيء أو كرهه ليست دليلا على صحة الرَّأي أو خطأه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

---

(١) الفصل بين النفس والعقل (١٠٤).
(٢) المصدر نفسه (١١٨-١٢٠).
(٣) المصدر نفسه (١١٥-١١٦).
(٤) المصدر نفسه (١٣٠).
(٥) المصدر نفسه (١٣٢).

والناس يحرصون على دفع ما تكرهه النَّفس وإن كان فيه مصلحتهم، فيقعون في الخطأ ما لم يتدخَّل العقل الصَّحيح والإيمان القوي[١].

الأعراض نوعان: نوع سهلٌ دفعه كالجوع وحصر البول مثلًا، ونوع يصعب دفعه كالهمّ والحزن والغضب، فلا ينبغي التَّفكير والنَّفس مشغولة بهما[٢].

أخطر شيء على العقل أن تجتمع عليه طبائع النَّفس وأعراضها وشهواتها، فإذا كانت النَّفس مطبوعة على الشِّدة، وعرض لها عارض الغضب في تحقيق ما تشتهيه ولو كان ممنوعًا، فإنّها تأمر العقل أن يفعل ما لا يرى وإن كانت حُجّته مثل الشمس، ما لم يكن له إيمانٌ قوِّيٌ يقاوم هذه المؤثِّرات الثلاثة: الطَّبع، والعَرَض، والشَّهوة[٣].

العقل ميزانٌ، والنَّفس قاعدته التي ينتصب عليها، فميل القاعدة يعطي نتيجة خاطئة، واللّوم على العقل؛ لأنّه لم يُقم القاعدةَ قبل الوزن، ولم يستفد من علمه، بسبب جهله بطبيعة نفسه وشهواتها، وربما انتفع النَّاس بعقله أكثر من انتفاعه هو به[٤].

العقل لا يتدخَّل في رغبات النَّفس التي لا تفسير لها: كميلها إلى جَوٍّ معين أو لون أو طعام؛ لأنَّ العقل لا يتدخَّل إلَّا فيما عقَلَه وفهمه، وقد يضرّ بالنَّفس إذا تدخَّل في مثل هذه الحالة؛ لأنَّه لا يمكن إرغامُها على طعام لا تشتهيه، لكن من حقِّه التَّدخُّل في عواقب الرَّغبات وأضرارها إن وُجدت[٥].

العقل أوسع من النَّفس مساحةً في الاختيار، وتزداد مع الزَّمن بالعلم والخبرة. والنَّفس أضيق منه مساحةً في الغالب، وتجدُّدُ اختيارها بطيء، وشهواتها لا تكاد تتغير، والعقل ثابت، والنَّفس مِقدامة متجاوزة لحدودها، ولذلك تتعدى على العقل كثيرًا، والعقل يلام إذا قصَّر في ردِّ هجومها عليه[٦].

---

(١) الفصل بين النفس والعقل (ص١٤٣)
(٢) المصدر نفسه (١٤٤).
(٣) المصدر نفسه (١٤٨).
(٤) المصدر نفسه (١٤٩-١٥١).
(٥) المصدر نفسه (١٥٣-١٥٤).
(٦) المصدر نفسه (١٥٥).

النَّفس تتسابق مع العقل في اختيار قناعة الإنسان، والأسبقية للأقوى منهما، وقد تصدر الفكرة مناصفةً بينهما إذا كان فيها خير وشرّ، وبعض النّاس يقدِّم النَّفسَ حتى إذا اشتهت، استدعى العقل ليفكِّر له في الطريق الموصل إلى الشَّهوة، وهذا استخدام لآلتي التَّفكير في غير موضعهما[1].

٤ - أهم أسباب إصلاح العقل وتقويته (الإيمان، العلم، التجربة، التفكير)

الإيمان كلّما قوي زادت قوّة العقل، وقد سبق قولُ من قال: إنَّ العقل هو الإيمان، والإيمان يقوَى بالإكثار من الطَّاعات الباطنة والظاهرة، واجتناب المعاصي الباطنة والظاهرة، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: ١١]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾[مريم: ٧٦].

والعلم نور، وهو أصل العقل وقيمته، وكلّما ازداد العلم قوِي العقل، والعلم عِلْمَان: علم بالله وعلم بأمر الله، ويدخل في العلم معرفة مراتب الخير والشَّرِّ، لأنَّ النَّفس تدخل على العقل من خلال هذه التَّفاصيل، فتصَغِّر الكبير وتكَبِّر الصَّغير؛ لتصل إلى مُرادها، ومداخلها على العلماء أخفى من مداخلها على الجُهَّال.

والتَّجربة أيضًا كلّما اتّسعت كلّما قوي العقل، وهي وإن اختلفت أسبابُها فهي متقاربة من حيثُ نفعها، والعرب كانت تعتبر العقلَ هو التَّجارب، والتَّجربة المشاهدة أقوى، والفرق بينها وبين العلم أنَّ العلم معرفة الحقيقة ولو لم تُجَرَّب، فلا نحتاج إلى تجربة السُّمِّ لأنَّ حقيقته معلومة.

والتَّفكير هو أعظم خصائص العقل، وبه يمتاز الإنسان، وبه تزداد قوّة العقل أمام المؤثِّرات[2].

٥ - علاقة العقل بالتفكير

العلاقة بين العقل والتفكير، علاقة أبوة وبنوّة، وأصل وفرع، وعمل ونتيجة، وترادف في موارد كثيرة، فالعقل يفكِّر، ونتيجة تفكيره تُسمَّى الفكرة، وأحيانًا يوضع العقل مكان التَّفكير، والتَّفكير مكان العقل، وهذا واضحٌ في مواطن كثيرة من القرآن، فنجد مثلًا بعضَ الآيات تتحدث عن موضوع واحد وتختم مرَّة بالعقل، ومرَّة بالتَّفكُّر، في مثل قوله تعالى:

---

(١) الفصل بني النفس والعقل (١٥٦).
(٢) المصدر نفسه (١٧٦).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[الرعد]، وفي الآية التي بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[الرعد]، وفي (آل عمران): ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، أي: العقول، وبعدها: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي (سورة البقرة): ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، وفي (الرُّوم: ٨): ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وفي ضرب الأمثال قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الروم:٢٨]، وفي (البقرة): ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾، وفي سياق القصص في (سورة الأعراف: ١٧٦): ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي (يوسف: ١١١): ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي العقول.

وهكذا في آيات يتَّحد فيها الموضوع أو يتقارب، وتختم الآية بالعقل أو بالتَّفكُّر، وهذا فيما يظهر لنا، وإلَّا فإنَّه عند التَّعمق في التَّفكير تظهر أسرارٌ أخرى في تنويع ختم الآيات بمفردات متقاربة في المعنى، تظهر لنا أنّها من باب التّرادف، فقد ذكر الإمام الرَّاغب الأصبهاني في مقدمة كتابه (المفردات) أنَّه ينوي أن يكتب كتابا «ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف اختصاص كلّ خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكره القلب مرّة، والفؤاد مرّة، والصّدر مرّة، ونحو ذكره تعالى في عقب قصة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وفي أخرى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[يونس: ٢٤]، وفي أخرى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٣٠]، وفي أخرى: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٨]، وفي أخرى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وفي أخرى: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾[الفجر: ٥]، وفي أخرى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[طه: ٥٤]، ونحو ذلك ممّا يعدّه مَن لا يحقّ الحقَّ ويبطل الباطل أنَّه من باب واحد»[(١)].

٦ - أسلوب القرآن في الدعوة إلى التعقل

كلّ آيات العقل الواردة في القرآن لا تخرج عن أمرين: **إمَّا** في سياق مدح العقلاء، وعددها ثمانية عشر آية، **أو** في سياق ذمّ الذين لا يعقلون، وعددها إحدى وثلاثون آية.

وأمَّا اللُّبّ والنُّهى والحِجر؛ فلم ترد في القرآن إلَّا في سياق المدح.

ومن أساليب المدح والثَّناء على العقلاء: أنَّ القرآن إذا ذكر الآيات الكونية أو التَّشريعية الدَّالَّة على جلال عظمته وقدرته وحكمته، أو بعض الأمثال والقصص، يبين أنَّه لا يستفيد من هذه الآيات والأمثال والقصص ويتَّعظ بها إلَّا أهل العقول والألباب والنُّهى:

ففي ستَّة مواضع من القرآن (البقرة: ١٦٣، الرَّعد: ٤، النَّحل: ١٢، ٦٧، الرَّوم: ٢٣، الجاثية: ١، ٢) ذكر آيات فيها ظواهر كونية: السَّماوات والأرض، اللَّيل والنَّهار، إنزال الماء، ما يخرج من الأرض من نبات، الفُلك التي تجري في البحر .. إلخ، وختمها كلّها بأن فيها آيات لقوم يعقلون، وفي أربعة مواضع (البقرة: ٢٤٠، آل عمران: ١١٨، الأنعام: ١٥١، النُّور: ٥٩) ذكر فيها آيات تتعلَّق بأحكام التَّشريع، وختم ثلاثةً منها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وموضعا واحدًا بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران: ١١٨]، وفي موضعين (يوسف: ٢، والزُّخرف: ٣) ذكر فيهما إنزال القرآن بلسان العرب، لكي يعقلوه ويفهموه، وختم الآيتين بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وآيتين في ضرب الأمثال (الروم: ٢٨، العنكبوت: ٤٣)، ختم واحدة بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الروم: ٢٨]، والأخرى قال فيها: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وآيتين في إحياء الموتى والأرض بعد موتها (البقرة: ٧٣، الحديد: ١٧) ختمهما بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وآية في هلاك المجرمين (العنكبوت: ٣٥)، ختمها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وآية في أطوار خلق الإنسان (غافر: ٦٧)، ختمها بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ويتبيَّن من خلال هذا التَّنويع في أساليب الدَّعوة إلى التَّعقل: أنَّ سياق الآيات لم يخرج عن أربع كلمات في ختام كلِّ الآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مرَّة واحدة، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثماني مرَّات، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ مرَّة واحدة. ففي الأولى يفيد الاختصاص، أي:

---

(١) المفردات (٥).

أنَّ هذه الآيات والحُجج لا يستفيد منها ويتَّعظ بها، إلَّا المؤمنون العقلاء، وهذا مِثلُ اختصاص هداية القرآن وشفائه بالمتَّقين والمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فُصِّلَت: ٤٤]، والختم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فيها إقامة الحُجج والبراهين للنَّاس رجاء أن يعقلوا عن الله، فيؤمنوا به ويعظِّموه ويعملوا بمقتضى ذلك، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، فيها بيان شرف العلم، وأنَّ العلماء وحدهم هم الذين يعقلون عن الله ويفهمون عنه مراده. وأمّا الختم بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد جاءت في سياق خطاب المؤمنين، والمقصود منها، كما قال ابن عطية: «قد علم الله أنهم عقلاء، ولكن هذا هَزٌّ للنفوس، كما تقول: إن كنت رجلا فافعل كذا»(١).

وأمَّا أسلوب القرآن في ذمِّ الذين لا يعقلون، فقد جاء في جملته يتحدَّث عن أقوام أعطاهم الله عقولًا غريزية، ولكنَّهم لم يستفيدوا منها، ولم يستخدموها، ولا سمحوا لأنفسهم أن يفكِّروا بها، ولما لم يستخدموا عقولهم فيما خُلِقت له، عاملهم القرآن معاملة مَن لا يعقل، فنفى عنهم العقل: فقال في ثلاثة أصناف: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وهم: الذين يفترون على الله الكذب [المائدة: ١٠٥]، والذين آمنوا بالله ربًّا واحدًا ولم يؤمنوا به معبودًا واحدًا [العنكبوت: ٦٣]، والذين لا يتأدَّبون مع النَّبيِّ ﷺ في الخطاب [الحجرات: ٤]، وقال عن اليهود: ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[الحشر: ١٤]، وقال عن الذين لم يستخدموا أدوات المعرفة كالسَّمع والكلام فيما خُلقت له: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧٠، الأنفال: ٢٢، يونس: ٢٢]، وحكى عن أهل النَّار قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[المُلك: ١٠]، وحكى عن موسى أنَّه طلب من فرعون أن يعيد النَّظر والتَّأمُّل في ربِّ المشرق والمغرب مَن هو، إن كان لفرعون عقل، إشارةً إلى أنَّه لا عقل له [الشعراء: ٢٧]، وقال عن الكفار الذين لا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس: ١٠٠].

وبقية المواضع كلّها بأسلوب الاستفهام: للتَّوبيخ أو الإنكار أو التَّعجب، من ذلك الإنكار على مَن يتَّخذ شفعاءَ دون الله لا يملكون شيئًا ولا يعقلون [الزمر: ١٠٠]، والإنكار على مَن لم يستخدم عقله وعَبَد الهوى [الفرقان: ٤٣]، والإنكار والتَّعجب والتَّخطئة لمن قلَّد الآباء وإن كانوا لا يعقلون [البقرة: ١٧٠]، واستفهام تعجبي من طمع المسلمين في إيمان اليهود وهم يعلمون أنهم يحرفون كلام الله عن عمد [البقرة: ٧٤](٢).

---

(١) المحرر الوجيز (آل عمران: ١١٨).

(٢) ورد في (المخطوط): ويعلمون أنّهم يحرفونه.

واستفهام تعجبي أيضًا، فيه تنزيل لعقول المشركين منزلة المعدوم، لأنهم عطلوها عن العمل [الحج: ٤٤]، استفهام إنكاري توبيخي لبعض بني آدم الذين عبدوا الشيطان مع عداوته لهم، وإضلاله لكثير من الخلق [يس: ٦١].

والمواضع المتبقية كلّها جاءت بأسلوب التَّوبيخ الإنكاري، الذي تختم فيه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤]، أي: أجُنِنْتُم؟ أفلا تعقلون؟ وذلك كحالة من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه [البقرة: ٤٣]، واليهود فيما بينهم، والمنافقون الذين لهم وجهان [البقرة: ٧٥]، واليهود الذين زعموا أنَّ إبراهيم الخليل كان على مِلَّتهم، مع أنَّه كان قبل نزول التَّوراة والإنجيل [آل عمران: ٦٣]، والذين يفضلون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية [الأنعام: ٣٣، الأعراف: ١٦٩، القصص: ٦٠]، وإنكار مشركي قريش لنبوة محمّد ﷺ، مع معرفتهم الطّويلة بصدقه [يونس: ١٦]، وعدم تعقل قوم هود مع دلالة حاله على صدقه [هود: ٥١]، وعدم النظر في عاقبة المكذبين، وتفضيل الدنيا على الآخرة [يوسف: ١٠٩]، ورفض مشركي قريش للقرآن مع أن فيه شرفهم [الأنبياء: ١٠]، وعبادة قوم إبراهيم ما لا ينفعهم ولا يضرهم [الأنبياء: ٦٦]، وعدم الاعتبار بآيات الله الدالة على عظمته في الإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار [المؤمنون: ٨٠]، وعدم الاعتبار والتأمل في قدرة الله على طمس أعين بعض الناس ومسخهم وإرجاعهم إلى ضعف العقل والجسد كما خلقهم في بداية أمرهم [يس: ٦٨]، وعدم الاعتبار بما حل بقوم لوط وهم يمرون على مكان عذابهم في الصباح وفي الليل [الصافات: ١٣٣].

٧ - أسلوب القرآن في الدعوة إلى التفكر

كعادة القرآن في أسلوب التّرغيب والتّرهيب فيما يدعو إليه من خير: فقد أنكر في خمسة مواضع على مَن يفكر بطريقة عكسية ليردّ الحقّ بالباطل، أو لا يتجرَّد في تفكيره من الأهواء، أو لا يفكِّر أصلًا. وباقي المواضع ثلاثة عشر، دعا فيها إلى التَّفكير بأسلوب التّرغيب، فمن قسم التّرهيب: كلمة ﴿فَكَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، جاءت في سياق الإنكار على الوليد بن المغيرة لما فكر بالباطل ليرد الحق، فقال عن القرآن بأنه سحر.

وكلمة ﴿تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]، جاءت في سياق الإنكار على الذين اتهموا النبي ﷺ بالجنون، فدعاهم القرآن إلى التفكير المجرد من الهوى والعصبية في شأن نبوة محمد ﷺ.

ومثلها ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾ في [الأعراف: ١٨٤]، وفي [الروم: ٨]، جاءت في سياق الإنكار على المشركين عدم تفكرهم في خلق السَّماوات والأرض.

﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] في سياق الإنكار على المشركين عدم تفكرهم في حجج الله وآياته على صحة نبوة محمد ﷺ، ووردت أيضا هذه الكلمة في سياق الترغيب من القسم الثاني [البقرة: ٢١٩]، في سياق ضرب مثل عجيب للمنفق ماله رياءً ومنة، وفيه تقريب المعقول بالمحسوس نصحًا لنا رجاء تفكرنا في العواقب حتى لا نعيش في غفلة[١]، وفي [البقرة: ٢٦٦] أيضًا في سياق الدَّعوة إلى التَّفكير في الآيات الدَّالة على الأحكام الشَّرعية المذكورة، لنقف على مقاصدها ونعمل بما فيها[٢].

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ إحدى عشرة مرَّة، كلّها في الدَّعوة إلى التَّفكير إمَّا في خلق السَّماوات والأرض [آل عمران: ١٩١]، أو في القصص [الأعراف: ١٧٦]، أو في ضرب المثل للدُّنيا وسرعة زوالها [يونس: ٢٤]، أو في رفع السَّماء، وتسخير الشَّمس والقمر، وبسط الأرض بما فيها من جبال وأنهار وثمرات، وليل ونهار [الرعد: ٢-٣]، أو إنزال الماء، وإنبات الزَّرع والزَّيتون والنَّخيل والأعناب [النحل: ١١]، أو تسخير كلّ ما في السَّماوات الأرض للإنسان [الجاثية: ١٣]، أو فيما نزل في القران من الأحكام والشرائع وغيرها [النحل: ٣٤]، أو في أُمَّة النَّحل من حيثُ مسكنها وأُكُلها، وما يخرج من بطونها من شراب فيه شفاء للناس [النحل: ٦٩]، أو فيما خلقه الله للنَّاس من أزواج من أنفسنا، وما جعل بيننا من المودة والرحمة [الروم: ٢١]، أو التَّفكُّر في كيفية تعلَّق النفس بالبدن ومفارقتها له عند النَّوم أو بالموت، وكونها تسعد وتشقى ولا تفنى [الزمر: ٤٢]، أو في الأمثال التي يضربها الله للناس، ومنها: القران الكريم الذي لو نُزِّل على جبل لتصدع، ففي الآية امتنان على محمَّد ﷺ بتيسير القران له الذي لو أنزله على جبل لتصدع [الحشر: ٢١].

٨ - فضل التفكير

لو لم يرد في فضل التَّفكير إلَّا أنَّه من عمل أولي الألباب لكفى، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]، قال ﷺ عن هذه الآية: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[٣]، وصح عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا: «تفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»[٤]، ونُسِب لغيره أيضًا، وقال الحسن البصري: «التَّفكُّر مرآةٌ يريك حسناتك وسيّئاتك»[٥].

---

(١) تفسير ابن عاشور وأبي السعود (البقرة: ٢١٩).
(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (البقرة: ٢٦٦).
(٣) أخرجه ابن حبَّان (٦٢٠)، وحسَّنه الألباني في (صحيح التّرغيب: ١٤٦٨)
(٤) أخرجه ابن سعد في (الطبقات ٧/ ٣٩٢)، وابن شيبة (٣٥٢١٣).
(٥) أخرجه أبو الشّيخ في (العظمة ١٣).

٩ - أهمية التفكر

قال أبو الشيخ في كتابه (العظمة): «باب الأمر بالتفكير في آيات الله عز وجل وقدرته وملكه وسلطانه وعظمته ووحدانيته»(١).

وقال أبو حامد الغزالي: «كثر الحثُّ في كتاب الله -تعالى- على التَّدبُّر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا يخفى أنَّ التَّفكُّر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته، ومصدره وموارده، ومجراه ومسرحه، وطريقه وكيفيته. ولم يعلم أنَّه كيف يتفكَّر، وفيما ذا يتفكَّر، ولماذا يتفكَّر، وما الذي يطلب به، أو هو مرادٌ لعينه، أم لثمرة تستفاد منه، فإن كان لثمرة، فما تلك الثَّمرة، أهي من العلوم، أو من الأحوال، أو منهما جميعًا؟ وكشف جميع ذلك مهم»(٢).

وهذا النَّصُّ يبيِّن قدرَ الاهتمام الذي ينبغي أن يكون عندنا بالتَّفكير ودقائقه وتفاصيله، وقال ابن القيم: «أصلُ كلِّ طاعة إنَّما هي الفِكر»(٣)، وقال ابن عاشور: «ولم يزل القرآن يُربِّي هذه الأُمَّة على إعمال الفكر والاستدلال، وتعرف المسببات من أسبابها في سائر أحوالها في التَّشريع والمعاملة لينشئها أُمَّة علم وفطنة، ولكون هذه الآيات آيات فراسة وتوسم»، قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: «ولم يقل: تعلمون، أو تفقهون، لأنَّ العقل أعمّ من العلم والفقه»(٤).

١٠ - متعلق التفكير ومجاريه وطرقه

متعلَّق التَفكير منحصرٌ في أربعة أمور:

١- غاية محبوبة مرادة الوصول.

٢- طريق موصل إليها.

٣- مضرة مطلوبة الإعدام، مكروهة الحصول.

٤- طريقٌ مفضٍ إليها(٥).

---

(١) العظمة (١/ ٢٠٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٦/ ٤٣)

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣)

(٤) التحرير والتنوير (آل عمران: ١١٨).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٤).

وبما أنَّ الغاية عندنا من هذا البحث هي استجلاب عظمة الله -جلَّ وعلا-، فإنَّ التَّفكير سيتجه إلى هذه الغاية التي هي غاية الغايات، يفكِّر العبدُ في معرفة الطريق الموصل إليها والعوائق التي يمكن أن تعترض الإنسان في طريقه وسيره إلى الله، ثمّ كيفية التَّخلص من هذه العوائق التي قد يجدها في طريقه، ومجاري الفكر في هذه المتعلقات يكون بالتفكير في النَّفس، والتَّفكير في الغاية المحبوبة التي هي تعظيم الله، فتفكير العبد في نفسه يكون بمحاولة معرفة صفات النَّفس وأحوالها الحسنة والسيئة، وتفكيره في المعبود الذي يريد تعظيمه، يكون بالتفكير في أسماء الله وصفاته، أو في أفعاله وملكه وملكوته.

وأمَّا طرق التَّفكير في هذين المسارين؛ فإنَّ البحث والتَّدقيق في معرفة أوصاف النَّفس وأفعالها، يكون من أجل معرفة المحبوب منها والمكروه عند الله، وذلك ليعمل بما يحبه الله، ويتجنب ما يكرهه الله، ومن عمل بما يحبه الله عن علم، واجتنب ما يكرهه الله عن علم= أحبَّه الله، وطريقة معرفة كلٍّ من المحبوب والمكروه، تنبني على العلم بأنَّ كلًّا من الطَّاعات والمعاصي تنقسم إلى: ظاهر: كأعمال الجوارح، وباطن: كالأعمال القلبية التي محلّها القلب.

وبطريقة أعمق: في معرفة المحابّ والمكاره، ينبغي النَّظر إلى صفات العبد وأفعاله من خلال ثلاثة أمور: فالمكاره نُفتش فيها هل هي مكروهة فعلًا أم لا؟ ثمّ إن كانت مكروهةً فما طريق الاحتراز منها؟ وهل هو متَّصف بها في الحال فيتركها، أو يتوقّع الاتِّصاف بها فيحترز، أو هو كان مُتَّصفًا بها في الماضي فيتوب منها.

وهكذا يفعل مع المحبوبات الظّاهرة والباطنة، وهذا هو طريق الفكر الذي تُستجلب به الأحوال المحبوبة عند الله، وتستبعد به الصِّفات المذمومة عند الله، ويستحسن أن يقرأ العبد كتابًا في الموضوع، يستعين به على معرفة المحبوب والمكروه عند الله، أو يسجل ما يعلمه من ذلك في ورقة ليكون على بال منها باستمرار، فيسجل من الصِّفات المكروهة مثلًا: الكبر والبخل والعجب والرِّياء والحسد وشدة الغضب وشَرَه الطعام والوقاع، وحبّ المال والجاه لذاتهما، كما يسجل أيضا من المحبوبات: النَّدم على الذُّنوب، والصَّبر على البلاء، والرِّضا بالقضاء والشُّكر، واعتدال الخوف والرَّجاء والزُّهد والإخلاص وحسن الخُلُق مع الخَلق، وحبّ الله وتعظيمه[1].

(١) ملخص من الإحياء (٦/ ٤٨-٥٦).

قال أبو حامد الغزالي: «ولا يوجد في الموضوع أنفع من قراءة القرآن بالتَّفكُّر، فإنَّه جامعٌ لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاءٌ للعالمين. فينبغي أن يقرأه العبدُ ويردِّد الآية التي هو محتاٌج إلى التَّفكُّر فيها مرَّة بعد مرَّة. وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ، فإنَّه قد أوتي جوامع الكلم، وكلّ كلمة من كلماته بحرٌ من بحور الحكمة، ولو تأمَّلها العالِم حقَّ التَّأمُّل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيثُ هي محبوبة عند الله، أو مكروهة»[(١)]

وأمَّا طريق الفكر في جلال الله وعظمته، فإنَّه يكون بالنَّظر إلى صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، ممّا يوجب التَّمييز بين الإيمان والكفر، وتنزيه الرَّبِّ عمَّا لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من صفات الجلال والجمال والكمال، ويكون ذلك بتدبُّر كلامه وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه، وأنَّ أفعاله كلّها دائرة بين الحكمة والرَّحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيءٌ منها عن ذلك، فتدبُّر كلامِه ندب إليه بقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾[ص]، والنَّظر في آثار أفعاله ندب إليه في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[يونس: ١٠١]، والتَّفكير في القرآن نوعان: تفكُّر فيه ليقع على مراد الرَّبِّ تعالى منه، وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَه إلى التَّفكُّر فيه، فالأوَّل تفكُّرٌ في الدَّليل القرآني، والثَّاني تفكُّرٌ في الدَّليل العياني، الأوَّل تفكُّرٌ في آياته المسموعة، والثَّاني تفكُّرٌ في آياته المشهودة[(٢)]، ويتلخص من خلال التَّفكير في النَّفس وفي المعبود ضرورة وجود كلٍّ منهما ليصل العبدُ إلى غايته المحبوبة وهي تعظيم الله، فالتَّفكير في أوصاف النَّفس المكروهة وتجنبها، وأوصافها الحميدة والاتِّصاف بها يوجب للعبد محبَّة الله له، والتَّفكير في جمال الله وجلاله وأوصافه وأفعاله وإحسانه وبرِّه ولطفه الدَّالّ على كمال صفاته، يوجب محبَّة العبد لربِّه، والإقبال عليه، والقرب منه، وتعظيمه، وإيثاره على غيره.

١١ - منهجية التفكير في تعظيم الله

سبق أنَّ التَّفكير من أجل تعظيم الله يكون إمَّا بتدبُّر الآيات المتلوة أو النَّظر في الآيات المشهودة، فالتَّفكير في القرآن له شروطه وآدابه، أهمُّها: الإيمان بالقرآن، وتطهير القلب من الأدران، وامتلاك أدوات اللُّغة والبيان، والتَّمرن على التَّفكير بالجنان، قال ابن حجر

(١) الإحياء (٦/ ٥٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٥-١٨٧).

العسقلانيِّ عن الانتفاع بالقرآن: «لا يجد طعمَه ونفعَه إلَّا من آمن به، وأيقن بأنه من عند الله، فهو المطهِّر من الكفر، ولا يحمله بحقِّه إلَّا المطهَّر من الجهل والشَّكِّ، لا الغافل عنه الذي لا يعمل، فيكون كالحمار الذي يحمل ما لا يدريه»[١].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يدرِّب أصحابه على التَّفكير كما في حديث النَّخلة[٢]، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك أيضًا كما في سؤاله لهم عن تفسير (سورة النَّصر)[٣]، وربما غضب أحيانًا إذا لم يجد عندهم استعدادًا للتَّفكير، فقد سألهم مرَّة عن قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة: ٢٦٦]، فيمَ نزلت: فقال بعضهم: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا «نعلم أو لا نعلم»، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيءٌ يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تُحقِّر نفسَك، قال ابن عبَّاس: ضُرِبت مثلًا لعمل، قال عمر: أيّ عمل، قال ابن عبَّاس: لعمل. قال: صدقت[٤]. وقال ابن مسعود: «من أراد العلمَ؛ فليثوِّر القرآن، فإنَّ فيه علم الأولين والآخرين»[٥].

وأمَّا التَّفكير في الآيات المشهودة، أي: فيما وصلنا من علم عن هذا الكون الواسع علويه وسفليه الذي لا يحيط به إلَّا خالقه، والذي كلّ ما مرَّت الأزمان تكشف منه ما لم يكن معلومًا في سابق الزَّمان، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فُصِّلَت: ٥٣] وكلّما كان الإنسان مطَّلعًا عالمًا ببعض تفاصيل هذا الكون ودقائقه، كلّما وصل إلى نتائج عجيبة ومبهرة تظهر في أكبر المخلوقات كما تظهر في أصغرها وأدقِّها، ومن العلماء الذين تحدَّثوا عن منهجية التَّفكير السَّليم في النَّفس والكون: الإمام أبو الشَّيخ في كتابه (العظمة)، فقد قال في الباب الثاني: «ذِكر نوعٍ من التَّفكير في عظمة الله عزَّ وجلَّ ووحدانيته وحكمه وتدبيره وسلطانه، قال الله عز وجل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات]، فإذا تفكَّر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشَّكِّ وظلمة الرَّيب»[٦].

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٠٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٨٩٨).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٢٩٤).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٥٣٨).
(٥) مجمع الزوائد (٧/ ١٦٨).
(٦) كتاب العظمة (١/ ٢٧١).

ثمّ تحدَّث عن جسم الإنسان مبيِّنًا وظيفة كلّ عضو من أعضائه وفائدته وحكمته بطريقة توصلك إلى تعظيم خالق الإنسان، وفي أبواب أخرى تحدَّث عن تعظيم الرَّبِّ، وأنَّه لا تُدرك ذاته ولا يحاط بعلمه، ثمّ تحدَّث عن آياته الدَّالَّة على عظمته وسؤدده وأمره وقضائه وعفوه وعظيم قدرته والعرش والكرسي وعِظَم خلقهما، وحُجُبه سبحانه وتعالى، والملائكة وكثرتهم وأنواعهم إلى غير ذلك من المخلوقات العظيمة التي تدلّ على عظمة خالقها لمن تأمَّل ونظر وتفكر(١).

وكذلك أبو حامد الغزاليُّ في كتاب (التَّفكُّر) من (الإحياء)، فقد فصَّل في الموضوع، وأتى بالعجب العجاب(٢).

وقد اعتمد عليه ابن القيِّم بشكل كبير، ونقل كثيرًا من عباراته أو أعاد صياغتها، وشرح ووضح وزاد على ما كتبه الغزالي، ويعجب الإنسان من ابن القيم في شيئين: الأوَّل: قوّة بيانه وقدرته على الارتقاء بالقارئ إلى درجة التَّعظيم من خلال حديثه عن حكمة الله، وإتقان صنعته في خلقه. والثَّاني: سعة اطلاعه على التَّفاصيل الدَّقيقة عن جسم الإنسان، أو عن أنواع الكون وأجناسه، حتى لكأنَّك أمام عالم معاصر متخصِّص في علم الفلك وعلوم الأرض والبحار والنَّباتات والحيوانات.

وأمَّا حديثه عن الإنسان وباطنه؛ فحديث الخبير الذي كأنَّ عنده منظارًا يصوّر به ما بداخل الإنسان من جزئيات وتفاصيل دقيقة، وقد تحدَّث في كتابه (مفتاح دار السَّعادة) عن الكون والإنسان (١٨٧ - ٢٧٧)، وتحدَّث عن حكم بعض أفعال الله بخلقه وأسرارها (٢٧٧ - ٢٩٩).

وفي (٣٠٠ – ٣٠٥) دعا إلى التَّأمُّل والتَّفكير في سيرة موسى ومحنته مع قومه، و سيرة سيِّدنا محمّد ﷺ و صبره على قومه، كما تحدَّث عن بعض محاسن الإسلام، وبيان أنَّ الفطرة والعقل يشهدان بأنَّ للعالم ربًّا قادرًا حليمًا عليمًا رحيمًا، كاملًا في ذاته وصفاته.

وفي ضمن هذه الصفحات (١١٨) التي تحدَّث فيها عن منهج التَّفكير= تكررت عنده كلمتا «التَّأمُّل، والنظر» أكثر من مائة وخمسين مرّة، ممّا يدلّ على العدد الكبير من أنواع المخلوقات

(١) العظمة (١/ ٢٨٧-٢٧١).

(٢) إحياء علوم الدين (٦/ ٥٧-٧٢).

والحكم والأسرار التي ساقها أمثلةً ليعلِّمنا من خلالها منهجية التَّفكير الموصل إلى تعظيم الله عزَّ وجلَّ، وفي حديثه عن تكوين الإنسان وأطواره وأعضائه، مثَّل بالنُّطفة والعلقة والمضغة والعظام التي ذكر أنَّ عددها ٣٦٠ عظمًا. كما مثَّل بالأضراس والأسنان والفم واللِّسان والأذن والعين والشَّعر واليدين والرَّقبة، وعدد فقرات الظَّهر، والأعصاب والأوتار التي تربط بين أعضاء الإنسان، وذكر أنَّ عددها ٥٢٩، والرَّأس والدِّماغ والحواس والعقل.

وتحدَّث عن غذاء الإنسان في مدخله ومستقره ومخرجه بتفصيل عجيب يفيد في تعليم منهجيه التَّفكير، ثمَّ قال عن فائدة تفكير الإنسان في نفسه: «وأقرب شيء إلى الإنسان نفسَه، وفيه من العجائب الدَّالَّة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التَّفكير فيه».

وقال عن وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان: «والمقصود التَّنبيه على أقلِّ القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان، والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال، أو يجري فيه المقال».

وقال عن النُّطفة: «لو اجتمع الإنس والجنُّ على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرةً أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عِرقًا من أدقّ عروقها، بل شعرةً واحدةً= لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كلّه آثار صنع الله الذي أتقن كلّ شيء في قطرة من ماء مهين. فمن هذا صنعه في قطرة ماء، فكيف صنعه في ملكوت السَّموات، وعلوِّها وسعتها واستدارتها، وعظم خلقها وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقدارها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرَّة فيها تنفكُّ عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا، وأعجب العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السَّموات، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾[النازعات]»[1].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾[غافر].

قال أبو السُّعود: «لقصورهم في النَّظر والتَّأمُّل لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم».

وقال ابن عاشور: «لا يعلمون الأدلَّة؛ لأنّهم متلاهون عن النَّظر في الأدلَّة»[2].

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦)

(٢) انظر: كلام أبي السعود وابن عاشور في تفسيرهما (غافر: ٥٦).

وقال ابن القيم أيضًا عن نسبة ما في الأرض إلى السَّموات: «فالأرض والبحار والهواء، وكلّ ما تحت السَّموات بالإضافة إلى السَّموات كقطرة في بحر، ولهذا قلَّ أن تجيء سورةٌ في القرآن إلَّا وفيها ذكرها»[١].

قلتُ: عدد ورود السَّماء والسَّموات في القرآن ٣١٠، وذكر ابن القيِّم أنَّ الشَّمس أكبر من الأرض بـ ١٦٠ مرَّة، والمعاصرون يقولون: ١١٦ مرَّة[٢].

وذكر أيضا عجائب خلق الشَّمس والقمر والهواء والسَّحاب واللَّيل والنَّهار والبحار، والحرّ والبرد والنَّار، والجبال والرَّمل، وعِزّة الذَّهب والفضة، ونزول المطر، وأنواع الأقوات والثِّمار، والحبوب والفواكه، وعجائب أوراق الأشجار، إلى غير ذلك من عوالم النَّباتات والحيوان والحشرات في البرّ والبحر، ولذلك يُنصح لمن أراد معرفة منهجية التَّفكير في عظمة الله وحكمته في مخلوقاته، صغيرها وكبيرها، علوِّيها وسفليها، أن يستعين بما كتبه ابنُ القيِّم في مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

١٢ - ثمرة التفكير

قال أبو حامد الغزالي: «وأمَّا ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصَّة العلم لا غير. نعم، إذا حصل العلم في قلب تغيَّر حالُ القلب، وإذا تغيَّر حالُ القلب تغيَّرت أعمالُ الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذًا؛ هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلِّها»[٣].

وقال ابن القيِّم: «للفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تامًّا بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعايةً لحقِّه»[٤].

وأمَّا كيف تجنى الثَّمرة، فيقول أبو إسماعيل الهرويّ: «إنّما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: **أ- قصر الأمل، ب- والتَّأمُّل في القرآن، ج- وقلّة الخلطة، والتَّمني، والتَّعلُّق بغير الله، والشّبع، والمنام**».

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦)
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦)
(٣) إحياء علوم الدين (٦/ ٤٧)
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٤٨)

قال ابن القيم في شرح هذا الكلام ما ملخصه: «أمَّا قصر الأمل: فهو تيقن زوال الدُّنيا ومفارقتها، وتيقن الآخرة وبقائها ودوامها. والتَّأمُّل في القرآن: هو تحديد نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبُّره وتعقُّله. وأمَّا المفسدات الخمس؛ فهي من أكبر مفسدات القلب، فخلطة مَن يفسد عليك دينك أو مَن لا فائدة من خلطته تفسد القلب. والأماني الفارغة التي لا ضابط لها والتي ليس تحتها عملٌ ضياعُ الوقت، وأمَّا تمنى الخير والعمل بأسباب الوصول إليه، فذلك خيرٌ. والتَّعلق بغير الله واعتقاد النَّفع والضُّرّ فيه شركٌ. وأمّا الطَّعام؛ فالمفسد منه للقلب نوعان: الأوّل: ما يفسده لِعَينه وذاته كالمحرَّمات: وهي نوعان: محرَّمات لحقِّ الله: كالميتة والخنزير، ومحرمات لحقِّ العباد: كالمسروق والمغصوب، وما أُخِذ بغير رضى صاحبه قهرًا أو حياءً. الثَّاني: ما يفسد بقدره وتعدِّي حدّه كالإسراف في الحلال، فإنّه يُثقل عن الطَّاعات، ويُقوِّي الشَّهوات. وأمَّا كثرة النَّوم؛ فإنَّه يميتُ القلبَ، ويُثقل البدنَ، ويُضيِّع الوقتَ، ويُورث الغفلةَ والكسلَ[1].

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٤٤٨-٤٥٦).

المبحث الرابع: تعظيم الله عز وجل

١- تعريف التعظيم لغة:

قال ابن فارس: «عظم: العينُ والظّاءُ والميمُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على كِبَر وقوّة، فالعِظَم مصدر الشَّيء العظيم، تقول: عَظُم يَعظُم عِظمًا، وعظَّمته أنا، فإذا عَظُم في عينيك؛ قلتَ: أعظمتُه واستعظمتُه»[١].

وقال الرَّاغب: «التَّعظيم من عظَّم الشَّيءَ، أصله: كَبُرَ عَظْمُه، ثمّ استعير لكلّ كبير فأجرىَ مجراه، محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنى»[٢].

وفي (اللِّسان): «العظيم: الذي جاوز قدرَه، وجلَّ عن حدود العقول، حتَّى لا تُتصوَّر الإحاطة بكنهه وحقيقته. ويُسبِّح العبدُ ربَّه، فيقول: سبحان ربي العظيم، وقال ﷺ: **(أمَّا الرُّكوع؛ فعَظِّموا فيه الرَّبَّ)**، أي: اجعلوه في أنفسكم عظيمًا. وعظمة الله سبحانه لا تكيَّف ولا تُحدّ ولا تُمثَّل بشيء، ويجب على العباد أن يعلموا أنَّه عظيمٌ كما وصف نفسه، وفوق ذلك بلا تكييف ولا تحديد»[٣].

وفي القاموس: «العِظَم خلاف الصِّغَر، وعَظُم كصَغُر عِظَمًا وعظامةً، فهو عظيم وعُظام كغرَاب وزنّار، وعظَّمه تعظيمًا، وأعظمه: فخَّمه وكبَّره، واستعظمه: رآه عظيما»[٤].

٢- تعريف التعظيم اصطلاحًا:

قال الهرويُّ: التَّعظيم معرفة العَظَمة مع التَّذلُّل لها، وهو ثلاث درجات:

الأولى: تعظيم الأمر والنَّهي [وهو الحكم الشرعي] من دون جفاء يُنقص كمال الامتثال، ولا غلو يتجاوز حدودَ الأمر والنهي، ولا يتأوّل الأمرَ والنَّهي بعِلّة تعود عليه بالإبطال، كتأويل تحريم الخمر بالعداوة والبغضاء.

الثَّانية: تعظيم الحكم الكوني القدري، ويكون بثلاثة أشياء:

أ- لا يطلب له عوجًا؛ لأنَّه لا عوج فيه.

---

(١) مقاييس اللغة (عظم).

(٢) المفردات (٣٣٩).

(٣) لسان العرب (عظم).

(٤) القاموس (عظم).

ب- منع اعتقاد التَّناقض والتَّعارض بين حكم الله الكوني القدري، وحكم الله الدِّيني الشَّرعي، فأمره الشَّرعيُّ لا يبطل قدرَه، وقدرُه لا يبطل أمرَه.

ج- لا يرضى بعِوَض يطلبه على عمله، أي: لا يرى لنفسه حقًّا على الله، وإنّما ينتظر فضلَ الله، ورحمته.

الثَّالثة: تعظيم الحقِّ سبحانه، وهو: أن لا يجعل دونه سببًا، ولا يرى عليه حقًّا، أو ينازع له اختيارًا. فالدَّرجة الأولى تعظيمُ أمره، والثَّانية تعظيمُ قضائه، والثَّالثة تعظيمُ صاحب الخَلق والأمر، أي: تعظيم الله.

وقد فسَّر ابن القيِّم الشُّروط الثَّلاثة لتعظيم الله بأنَّ:

الأوَّل: أن لا يجعل العبد للوصول إلى الله سببًا غيره، فلا يوصِل إلى الله إلَّا الله، ولا يُتَوَصَّل إلى رضائه إلَّا به، فما دلَّ على الله إلَّا الله، ولا هدى إليه سواه، ولا أدنى إليه غيره، فإنَّه سبحانه هو الذي جعل السَّبب سببًا، فالسَّبب وسببيته وإيصاله كلّه خلقه وفعله.

والثاني: أن لا يرى عليه حقا، أي: لا ترى لأحد من الخلق، لا لك ولا لغيرك حقا على الله، بل الحق لله على خلقه، وأما حقوق العبد على الله من إثابة وتوبة وإجابة، فتلك حقوق أحقَّها الله على نفسه بحكم وعده وإحسانه، لا أنها حقوق أحقوها هم عليه.

والثالث: أنه إذا اختار الله لك أو لغيرك شيئا دينيا أو قدريا، فلا تنازع اختياره، وارض به، فإن ذلك من تعظيمه سبحانه، ولا تَرِدُ المعاصي هنا فإنه إن قدرها، فإنه لم يخترها[1].

وقال في موطن آخر: على قدر تعظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره، يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها[2].

وعرَّف أبو حامد الغزاليُّ التَّعظيم بقوله: «حالةٌ للقلب تتوَّلد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله -عزَّ وجلَّ- وعظمته، **وهو من أصول الإيمان**، فإنَّ مَن لا يعتقد عظمته لا تُذعِن نفسُه لتعظيمه، الثانية: معرفة حقارة النَّفس وخِسَّتها وكونها عبدًا مسخَّرًا مربوبًا حتى يتوَّلد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبِّر عنه بالتَّعظيم»[3]. وقال أيضا: «والتَّعظيم أحد المعاني الباطنة التي يحصل بها الخشوع في الصَّلاة، وهي حضور القلب والتَّفهُّم والتَّعظيم والهيبة والرَّجاء والحياء»[4].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٧).

(٣) الإحياء (١/ ٢١٥).

(٤) الإحياء (١/ ٢١٤).

٣ - وجوب تعظيم الله عز وجل

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله والرِّسالة لعبده ورسوله، ثم لم يُتْبع هذا الاعتقاد موجبَه من الإجلال والإكرام الذي هو حالٌ في القلب يظهر أثرُه على الجوارح، بل قارنه الاستخفاف والتَّسفيه والازدراء بالقول، أو بالفعل= كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبًا لفساد ذلك الاعتقاد، ومزيلًا لما فيه من المنفعة والصَّلاح؛ إذ الاعتقادات الإيمانية تُزكي النُّفوس وتُصلحها، فمتى لم توجب زكاة النَّفس ولا صلاحها، فما ذاك إلَّا لأنّها لم ترسخ في القلب ولم تصر صفةً ونعتًا للنَّفس ولا صلاحًا. والنَّجاة لا تحصل إلَّا بيقين في القلب، ولو أنّه مثقال ذرَّة[١].

ومعلوم أنَّ روح العبادة في الإسلام هو التَّعظيم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج].

قال ابن القيِّم: فعلامة التَّعظيم لأوامره ونواهيه: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والمسارعة إليها عند وجوبها[٢]. وقال أيضًا: «فإنَّ الله تعالى ذمَّ مَن لا يعظِّم أمرَه ونهيَه، وقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾[نوح]، وقالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة»[٣].

والقلب إذا عظَّم الله عظَّمت النَّفسُ شرع الله وحرماته، قال بشرٌ الحافي: «لو تفكَّر النَّاس في عظمة الله تعالى؛ ما عصوه»[٤].

٤ - ورود اسم الله العظيم والكبير في سياق تعظيم الله لنفسه في القرآن

ورد اسم الله (العظيم) في القرآن ستّ مرات، وكذلك اسم الله (الكبير)، وقد جاء اسم (العظيم) مقترنا باسمه (العلي) في موضعين، ومقترنًا بالتسبيح في ثلاثة مواضع، ومنفردًا عنها في موضع.

أمَّا اسم الله (الكبير)؛ فجاء مقترنًا باسمه (العلي) في كلّ موارده، والعظيم والكبير كلاهما فُسِّر بمعنى الآخر، فالعظيم هو الكبير، والكبير هو العظيم، كما في كتب اللغة

(١) الصارم المسلول (٣٦٩).
(٢) الوابل الصيب (٢٣).
(٣) الوابل الصيب (٢٢).
(٤) الإحياء (٦/ ٤٥).

والتفسير، قال ابن فارس: «كَبُر يدلُّ على خلاف الصِّغَر»[١]، وفي (القاموس): «العِظَم خلاف الصِّغَر»[٢]، وقال ابن كثير: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سبأ: ٢٣]، وكقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩]»[٣].

وفي كلِّ موارد هذين الاسمين نجد ذكرًا لمخلوقات عظيمة، أو حِكمًا شرعيًا أو عذابًا، فاسم (العظيم) ورد في نِهاية (آية الكرسي)، وهي أعظم آية تتحدَّث عن عظمة الله في قوله تعالى: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وفي (سورة الشُّورى: ٤) ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذُكِرت بعد ذكر الوحي، واسم الله (العزيز، والحكيم)، والسَّموات، والأرض، ومقرونة باسمه (العلي).

وفي (سورة الواقعة: ٧٤، ٩٦) ذُكِرت مقرونةً بالتَّسبيح في الأولى بعد ذكر خلقنا ومخلوقات مهمّة لحياتنا، والثَّانية بعد ذكر أصناف النَّاس يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾[الواقعة] إشارة إلى السُّورة بكاملها، أو إلى أقرب ما ذُكر من أصناف النَّاس، وفي (سورة الحاقة: الآية٣٣، ٥٢) في الأولى بعد ذكر أبشع عذاب لأهل النَّار؛ لأنّهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم، والثانية مقرونة بالتّسبيح، وبعد الإشارة إلى أنَّ القرآن حقّ اليقين.

واسم الله (الكبير) ورد مقرونًا باسمه (العلي) في كلِّ موارده في (سورة الرَّعد: ٩): ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ بعد قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، والمتعال: المستعلي على كلِّ شيء.

وفي (الحجِّ: ٦٢): ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢]، ذكر قبلها وبعدها مخلوقات عظيمة، ليل نهار سماء أرض، سماوات بحر إمساك السماء أن تقع، إحياء، إماتة، وباللفظ نفسه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[لقمان: ٣٠] قبلها وبعدها سموات، أرض كلمات الله، سرعة الخلق والبعث، غني حميد، عزيز حكيم، سميع بصير، ليل نهار، شمس قمر، اسم الله الخبير، الفلك تجري في البحر.

وفي (سبأ: ٢٣): ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ جاءت بعد الشَّفاعة وعظمته عندما يَتكَّلم، والسَّموات والأرض والرِّزق، وفي (سورة غافر: ١٢): ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ قبلها الإحياء والإماتة، والتَّحذير من الشِّرك، وبعدها إنزال الرِّزق من السَّماء.

---

(١) مقاييس اللغة (كبر).

(٢) القاموس (عظم).

(٣) تفسير ابن كثير (البقرة: ٢٥٥).

وفي (سورة النِّساء: ٣٤): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ قبلها الأمر بالإصلاح بين الزوجين، وبعدها الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك والإحسان إلى الوالدين، وذي القربى واليتامى، والجار وابن السبيل وما ملكت اليمين.

٥ - الله يعظم نفسه بنفسه ويُعَرف عبيده بجلال قدره

لقد تعرَّف الله إلى عباده بأسمائه وصفاته المذكورة في القرآن، وهي كثيرة وبعضها مكرَّر عشرات المرَّات، وهو سبحانه وتعالى ينوِّع في التَّعريف بنفسه تعليمًا للعباد، وإعذارًا لهم، فنبَّههم في ثلاثة مواطن من القرآن إلى أنّهم ما عرفوا قدرَه، وما قدروه حقَّ قدره؛ لأنّهم يقومون ببعض الأعمال التي تتنافى مع العلم بعظمة الله وقدره، كإنكار الوحي إلى رسله وعبادة غيره، وإشراك غيره معه في العبادة.

وهذه الأمور الثَّلاثة هي التي جاءت في سياقها الآيات الثَّلاث التي تتحدَّث عن عظمة الله وقدرته، ففي (سورة الأنعام: ٩١): ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، وقد جاءت في سياق الرَّدِّ على الكفَّار الذين أنكروا أن يكون الله أوحى إلى أحدٍ من البشر.

وفي (سورة الحجّ): ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾، جاءت في سياق تحدِّ المشركين الذين يعبدون غير الله أن يخلقوا ذبابًا أو أن يستنقذوا ما أخذه الذُّباب منهم، ويسترجعوه.

وفي (سورة الزُّمر): ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ جاءت بعد الإخبار بأنَّه خالقُ كلِّ شي، ووكيل على كلّ شي، وله مقاليد السَّماوات والأرض، والإنكار على من يعبد غيرَه، وأنَّ مَن أشرك يُحبِطُ الله عملَه.

والرَّسول ﷺ ما كان يترك مناسبةً إلَّا ويعرِّف فيها بعظمة الله وجلال قدره، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيات يومًا على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، ورسول الله

ﷺ يقول هكذا بأُصبعه يُحَرِّكها: «**يُمَجِّد الرَّبُّ -جلَّ وعلا- نفسَه «أنا الجبَّار، أنا المتكبِّر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف برسول الله ﷺ المنبرُ حتى قلنا ليَخِرَّنَّ به**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد، إنَّا نجد أنَّ الله يجعل السَّموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشَّجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النَّبيُّ ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾(٢).

٦- عظمة الله تتجلى في كل آية مسطورة أو آية منظورة

كل آية تكلم الله بها في كتابه المسطور أو خلقها في كونه الفسيح المنظور سواء رأيناها بأعيننا، أو أخبرنا الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[الحاقة]، فإنّها تدلّ على عظمته وجلاله وكبريائه.

وطرق التَّعظيم وأنواعها وأوجهها لا عدّ لها ولا حصرَ، بل هي فوق ما نتصوَّر، ولمَّا كان كلّ ما في الكون من مخلوقات تشهد بعظمة الله وجلال قدره لكلِّ متبصِّر؛ لأنَّ الخلق في حدِّ ذاته دالٌّ على عظمة الله ولو لم تفكر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزُّمَر: ٦٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢].

فيا عجبا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحدُه الجاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ

لمَّا كان الأمر كذلك في الآيات المنظورة، وأردتُ أن أكتب عن الهدايات القرآنية في تعظيم الله= قمتُ بختمةٍ للقرآن قصدَ جمع الآيات التي دلالتها بارزة عن التَّعظيم، فجمعتُ خيرًا كثيرًا، ثمّ أعدت الكرَّة وغيَّرت تصوُّري عن تعظيم الله من خلال القرآن، وإذا بي أفاجأ بأنَّه لا توجد آية واحدة في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- لا تحمل وجهَ تعظيم لله، فعكست المسألة، وبدأتُ أبحث عن الآيات التي لا تحمل نوعًا من أنواع التَّعظيم، ووجدتُ أنَّ السَّبب الذي جعل بعض الدَّارسين يقفزون عن آيات كثيرة زعمًا منهم أنَّها لا تدلّ على التعظيم، هو: التَّصوّر السَّائد عند البعض عن التَّعظيم وأنواعه وأجناسه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، وصححه ابن حبّان (٢٧٧٣)، والألباني في (الصحيحة: ٧/ ٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٨١١).

وبحسب تصوّر كلٍّ واحد منهم للتَّعظيم يكون بحثُه، فتجده يقف عند بعض الآيات التي تَصوَّر أنَّ فيها تعظيمًا، ويتجاوز أخرى بحسب فهمه للتَّعظيم وطريق الوصول إليه، ولذلك؛ فإنَّ الذي يجب فعلُه هو إعادة النَّظر في تصوَّر التَّعظيم ومنهجية الوصول إليه، وإذا ما فعلنا ذلك سنكتشف أنَّ ما نجهله من أنواع التَّعظيم أكثرَ ممَّا نعلمه، فأقلّ عدد يمكن استحضاره من أنواع التَّعظيم ينبغي أن يكون بعدد أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأخباره وأوامره ونواهيه وأمثاله، وأنواع مخلوقاته.

فلا يمكن أن يدِّعي باحثٌ أنَّ شيئًا من هذا ليس فيه تعظيمٌ، فيمرّ بآية فيها اسم من أسماء الله تعالى صريحًا أو مضمرًا، أو صفةٍ من صفاته، أو حكمٍ من أحكامه، أو أمرٍ أو نهي، أو جزاء أو ثواب، أو دعاء أو رجاء، أو خبر عمّا مضى، أو ما سيكون مستقبلًا في الدُّنيا أو في الآخرة، أو ذكر للجنَّة والنَّار بأسمائهما المختلفة، ثمّ يقول: إنَّه لم يقف على تعظيم، فكلّ آية فيها لفظ الجلالة «الله» الذي تكرَّر ذكره في القرآن ٢٦٩٧ مرَّة، إلَّا وفيها تعظيمٌ، وكذلك لفظ «الرَّبّ» وغيره من أسماء الله وصفاته وأفعاله، وكذلك مادة «خلق» بجميع مشتقاتها التي تدلّ على خلق الله وعددها ٢٩٧، أو تمرّ على السَّماء والسَّموات التي عددها ٣١٠، أو مصطلح «الآية» بجميع صيغها التي تكرَّرت ٣٨٢ مرَّة، أو فعل «جعل» الذي تكرَّر ١١٤ مرَّة، أو التَّسبيح ١٠٢ مرَّة، أو الحمد ٦٢ مرَّة .. الخ.

فلو تأمَّل الإنسانُ في الاستعاذة والبسملة لوجد فيها أوجهًا من التَّعظيم كثيرة، وآيات الفاتحة السَّبعة لا تخلو واحدة منهن من التَّعظيم، بل في كلّ كلمة من كلماتها تعظيمٌ.

قال أبو حامد الغزالي: «فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسرارًا لا تنحصر، ولا يُوقَف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة».

وإذا ما نظرت في كلّ سورة من سور القرآن، وجدتَ لكلّ سورة موضوعًا تتحدّث عنه السُّورة يدلّ على التَّعظيم، بل إذا نظرتَ إلى القرآن بأكمله وجدتَ فيه خيطًا ناظمًا لتعظيم الله، على حدّ تعبير الأستاذ إبراهيم السَّكران، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول عن كتابه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأنبياء]، ولكن أكثرنا لا يعقل، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة]، ولكننا نحتاج إلى أن نكون من المتقين، ولذلك قال جعفر الصَّادق: «والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولـكن لا يبصرون»[1].

---

١ إحياء علوم الدين ١/ ٣٨١.

٧ - قراءة القرآن الشيدة في استجلاب تعظيم الله جل وعلا

منذ عهد الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بدأت الشَّكوى من القراءة السَّطحية التي ليس تحتها عمل، وهي وإن كان فيها أجرُ التِّلاوة إلَّا أنَّه ربَّما يصل الحال بالبعض أن يقرأ القرآن ويخالف أوامره عن عمد، ولذلك؛ جاء الأمرُ في القرآن بالتَّدبُّر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، ولما رأى ابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعضَ تلك القراءات الخالية من التَّدبُّر والعمل؛ قال: «أُنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتَّخذوا دراسته عملًا، إنَّ أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا وقد أسقط العملَ به»[(١)]، وقال الحسن البصري: «والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قرأتُ القرآنَ كلَّه، ما يرى له القرآن في خُلُق ولا عمل»[(٢)] ، وقال شميط بن عجلان: «إنَّ المؤمن اتَّخذ كتابَ الله -عزَّ وجلَّ- مرآةً، فمرة ينظر إلى ما نعت الله -عزَّ وجلَّ- المؤمنين، ومرَّة ينظر إلى ما نعت الله -عزَّ وجلَّ- به المغترِّين، ومرّة ينظر إلى الجنَّة وما وعد الله -عزَّ وجلَّ- فيها، ومرَّة ينظر إلى النَّار وما أعدَّ الله -عزَّ وجلَّ- فيها، تلقاه حزينًا كالسَّهم المرمى به، شوقًا إلى ما شوَّقه الله -عزَّ وجلَّ- إليه، وهربًا ممَّا خوفه الله -عزَّ وجلَّ- منه».

ولذلك؛ تتابع التَّحذير من القراءة الخالية من التَّدبُّر والعمل، وكتب المحدثون وغيرهم في فضائل القرآن وآداب التِّلاوة، منهم: أبو عبيد القاسم بن سلَّام والآجُرِّيُّ والنَّوويُّ وغيرهم بقصد توجيه النَّاس إلى القراءة النَّافعة، وأدرج الغزاليُّ في (الإحياء) كتابًا سمَّاه: «كتاب آداب تلاوة القرآن» تضمن بابًا في الأعمال الباطنة في التِّلاوة لخَّصتُ منه ما يفيدنا في هذه المسألة المهمة، وقد جعلها في عشرة أعمال:

١- **فهم أصل الكلام** بفهم عظمة الكلام وعلوِّه، وأنَّه لولا أنَّ الله يسَّر القرآن لنبيِّه والمؤمنين به ما استطاع أحدٌ قراءته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[مريم: ٩٧].

---

(١) الإحياء (١/ ٣٦٤)

(٢) تفسير ابن كثير (ص: ٢٩).

٢- **تعظيم المتكلم** باستحضار عظمة المتكلم بالقرآن، وأن الله قال عن كلامه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾[الواقعة].

٣- **حضور القلب** وترك حديث النَّفس، وصرف الهِمّة إليه، وهذه الصَّفة تتولَّد عمّا قبلها فمن عظم المتكلم عظم كلامه.

٤- **التَّدبُّر**: ولا يكون إلَّا بحضور القلب وتكرار الآية، فقد قام ﷺ ليلةً كاملةً بآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[المائدة]، وقام سعيد بن جبير بآية ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[يس]، وقال أبو سليمان الدَّاراني: إنِّي لأتلو الآيةَ، فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا أنّي أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.

٥- **التَّفهُّم**: وهو أن يستوضح كلَّ آية ما يليق بها من صفات الله وأفعاله، وأحوال الأنبياء والمكذبين، والأوامر والنَّواهي، والجنَّة والنَّار، وينبغي أن يستدلّ بعظمته على عظمته، وأن يشهد في الفعل الفاعل.

٦- **التَّخلِّي**: عن موانع الفهم التي منها: المبالغة في تحقيق مخارج الحروف، والتقليد بدون بصيرة، والإصرار على الذُّنوب، والظَّنّ بأنَّ الآية لا معنى لها إلَّا ما قاله فيها المفسِّرون السَّابقون.

٧- **التَّخصيص**: أي أنَّك مخصوص بالخطاب القرآني، وكلّ آية فيه موجَّهة إليك.

٨- **التَّأثر بالمعاني** المختلفة للآيات حزنًا وخوفًا ورجاءً، وتتلوه حقّ تلاوته التي يشتغل فيها اللِّسان بتصحيح الحرف، والعقل بتفسير المعنى، والقلب بالاتِّعاظ والتَّأثر والانزجار والائتمار.

٩- **التَّرقي**: من أن يعتبر نفسَه واقفًا بين يدي الله، إلى كأنَّ الله يخاطبه، إلى أن يرى في الكلام المتكلِّم، وفي الكلمات الصِّفات، قال جعفرٌ الصَّادق: والله لقد تجلَّى الله لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون، وسُئل عن حالة لحقته في الصَّلاة حتى خَرَّ مغشيًا، فقال: ما زلت أردِّد الآيةَ حتى سمعتُها من المتكلِّم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرتِه.

١٠- **التَّبرِّي**: وهو التَّبرُّؤ من الحول والقوّة والنَّظر إلى النَّفس بعين الرِّضى والتَّزكية، فإذا قرأ آياتٍ في صفة المؤمنين لا يشهد نفسَه هناك، وإذا قرأ آيات العصاة والمذنبين يخاف على نفسه أن يكون منهم[1].

---

(١) الإحياء (١/ ٣٧٢-٣٨٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتبارك الذي جعل كلامَه حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور، وبالجملة فلا شيءَ أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر، فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السَّائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين»[١].

٨ - صور من تعظيم الله سبحانه وتعالى عند قراءة القرآن أو في الصلاة:

صور من القراءة العملية للقرآن:

١- لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال أبو الدَّحداح: يا رسول الله، وإنَّ الله ليريد منَّا القرض. قال: نعم يا أبا الدَّحداح. فتصدق بحائطٍ له فيه ستُّ مئة نخلة[٢].

٢- لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، جاء أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تعالى قال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي بَيروحاء، وإنّها صدقةٌ لله، أرجو برَّها وذخرَها عند الله[٣].

٣- لمَّا نزلت ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شققن المهاجرات الأُوَل مروطَهنَّ، فاختمرن بها[٤].

صور من التأثر بكلام الله:

١- حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**»، قلتُ: أقرأ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: «**فإنِّي أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأتُ عليه (سورة النِّساء) حتَّى بلغتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]، قال: «**أمسك**»، فإذا عيناه تذرفان[٥].

٢- عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سمع مرَّة قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور]، فتأثر بها حتى عاده الناس[٦].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني (٧٦٤)، وصححه الألباني في (تخريج أحاديث مشكلة الفقر: ١٢٠).

(٣) متّفق عليه؛ البخاريّ (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٤) أخرجه البخاريُّ بهذا اللفظ معلّقًا (٤٧٥٨)، ووصله (٤٧٥٩) دون ذكره المهاجرات الأول.

(٥) متّفق عليه؛ البخاريُّ (٤٥٨٣)، ومسلم (٨٠٠).

(٦) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٤).

٣- عبد الله بن رواحة: كان واضعًا رأسه في حِجر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيكِ، فقالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، قال: إنِّي تذكرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[مريم]، فلا أدري أأنجوا منها، أم لا[(١)].

٤- عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شرب ماء باردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل: ما يبكيك؟ قال: تذكرتُ آيةً في كتاب الله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤]، فعرفتُ أنَّ أهل النَّار لا يشتهون إلَّا الماء البارد، وقد قال الله عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[الأعراف: ٥٠].

٥- قصة الفضيل بن عياض مع قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦][(٢)].

صور من تعظيم الله في الصَّلاة:

١- أبوبكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في صلاته كأنَّه وتد[(٣)].

٢- عليُّ بن أبي طالب كان إذا حضرت الصَّلاة يتلوَّن وجهُه.

٣- ابنُ الزبير كان في صلاته كأنَّه عودٌ من الخشوع[(٤)].

٤- مسلم بن يسار سقطت اسطوانة في المسجد، فلم يشعر بها من الخشوع.

٥- وكان عامر بن عبد الله من شِدَّة تعظيمه لله في الصَّلاة، ربما تضرب بنته بالدُّفِّ بجانبه، فلا يسمعها، ولمَّا قيل له: هل تحدثك نفسُك في الصَّلاة بشيء، قال: نعم، بوقوفي بين يدي الله -عزَّ وجلَّ-، ومنصرفي إلى إحدى الدَّارين[(٥)].

---

(١) تفسير ابن كثير (مريم: ٧١).

(٢) شعب الإيمان (٥/ ٤٦٨: ٧٣١٦).

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة (٣٤٨٢٥).

(٤) الإحياء (١/ ٢٢٧).

(٥) المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

- الإبانة عن طرق القاصدين، والكشف عن مناهج السالكين، لأبي بكر ابن فوك، بدون.
- الأحكام الشرعية الكبرى، للإشبلي، ت، محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، الناشر دار الخير، بيروت، ط٢ ، ١٩٩٣م.
- أدب الدنيا والدين، للماوردي، تعليق كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ط.٢ سنة ١٩٨٧م.
- إرشاد العقل السليم، إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إرواء الغليل، للألباني، طبعة المكتب الإسلامي، ط.٢ سنة ١٩٨٥م
- الأشباه والنظائر، لتاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية، ط.١ سنة ١٩٩١م
- بغية المرتاد، لابن تيمية، تـ. موسى الدويش، ط، مكتبة العلوم والحكم، ط.٣، ١٩٩٥م
- تاريخ الأمم والملوك، للطبري، توزيع عباس الباز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- تخريج أحاديث مشكلة الفقر ، للألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط.١، ١٩٩٤م.
- التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.٣، ١٩٨٨م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثينر، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة،
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط، بدون معلومات.
- جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري، دار المعرفةـ بيروت، ط، ١٩٨٣ .
- جامع المسانيد والسنن، لابن كثير، ت، بن دهيش، دار خضر بيروت، ط٢، ١٩٩٨ .
- الدر المنثور، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الرد على من أنكر الحرف..، للسجزي، تـ. باكريم، نشر الجامعة الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ.
- رسائل ابن حزم تـ. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الرسالة للإمام الشافعي، تـ. أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، تـ. حامد الفقي، ط، السنة المحمدية.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٩٧٩م.
- سنن أبي داود ، تعليق محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.

- سنن الترمذي، تعليق عزت الدعاس، المكتبة الإسلامية، تركيا، استانبول.
- شعب الإيمان، للبيهقي، تـ. بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٨٧م.
- شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الصارم المسلول، ابن تيمية تـ. محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، ١٩٨٣م.
- الصحاح، للجوهري، تـ أحمد عطار، دار العلم للملايين، ط.٤، ١٩٨٧م.
- صحيح الأدب المفرد، الألباني، دار الصديق، الجبيل ، السعودية، ط .٢، ١٩٩٤م.
- صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ط.١ سنة ١٩٩٧م.
- صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط. ١، ٢٠٠٠.
- صحيح الجامع الصغير الألباني، المكتب الإسلامي ، ط٣، ١٩٨٨ .
- صحيح ابن حبان، ت، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣ ، ١٩٩٧ .
- صحيح مسلم، المكتبة الإسلامية، اسطنبول – تركيا .
- صفوة الصفوة لابن الجوزي، ت أحمد بن علي، نشر: دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الطبقات لابن سعد، ت، إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ط١ ، ١٩٦٨ .
- العدة في أصول الفقه، لأبي يعلى، ت، المباركي، الرياض، ط٢، ١٩٩٠ .
- فتح الباري، لابن حجر، ت، ف، عبدالباقي، و الخطيب، دار المعرفة بيروت.
- الفرون في اللغة ، لأبي هلال العسكري، دار الآفاق، ط٥، ١٩٨٣ .
- الفصل بين النفس والعقل، للطريفي، دار المنهاج، الرياض، ١٤٣٩هـ.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٩٨٦ .
- قواطع الأدلة، للسمعاني، ت، عبد الله الحكمي، مكتبة التوبة، ط١ ، ١٩٩٨ .
- كتاب الأخلاق والسير، لابن حزم، ت، رياض، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩ .
- كتاب الحدود في الأصول، لابن فورك، ت، السليماني، دار الغرب، ط١ ، ١٩٩٩ .
- كتاب العظمة، لابي الشيخ، ت، رضا، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
- كتاب العين، للخليل، ت، المخزومي والسامرائي، دار مكتبة الهلال، القاهرة.
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، دار صادر، بيروت.
- الكليات، للكفوري، ت، عدنان ومحمد اعمري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٢ .
- لباب النقول، للسيوطي، تصحيح عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- ماهية العقل، للحارث المحاسبي، بدون.
- مجمع الزوائد، للهيثمي، دار الفكر العربي، بيروت، ط٣ ، ١٩٨٢ .
- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، طبعة الملك فهد.
- المحرر الوجيز، لابن عطية، ط، وزارة الشؤون الإسلامية – المغرب.
- مدارج السالكين، لابن القيم، ت، محمد البغدادي، ط، دار الكتاب العربي، ط١ ، ١٩٩٠ .
- المستدرك، للحاكم، ت، عبد القادر عطا، ط، دار الكتب، بيروت، ط١ ، ١٩٩٠ .
- المستصفى، للغزالي، ت، محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٩٩٧ .
- المسند للإمام أحمد، ت، الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٩٩٤ ط، دول قطر.
- المصباح المنير، للفيومي، مكتبة لبنان، بيروت.
- مصنف ابن أبي سيبة، ت، محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٩٥ .
- مطالع الأنوار، لابن فرقول، ت، دار الفلاح، ط، دولة قطر، ط١ ، ٢٠١٢ .
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، جماع من المستشرقين، ط، بريل لندن، ١٩٦٥ .
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف: عبد السلام هارون، بيروت.
- مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المفردات، للراغب الأصبهاني، ت، محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، ت، أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨ .
- المنار المنيف في الصحيح الضعيف، لابن القيم، ت، استانبولي، بدون.
- الموافقات، للشاطبي، ت، محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣ .
- الموضوعات، لابن الجوزي، ت، عبد المقصود، ط، أضواء السلف ط١ ، ١٩٩٧ .
- نهاية السول في شرح منهاج الأصول، للإسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نزهة الأعين والنواظر، لابن الجوزي، ت، الراضي، مؤسسة الرسالة، ط، ١٩٨٧ .
- الوابل الصيب، لابن القيم، ت، شعبان، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٣ .